الوجـه

فاطمة العامري

الوجه

مجموعة قصصيّة

Qindeel | قنديل

The Face

Fatima al - Amiry

(Series of Stories)

الوجه

مجموعة قصصيّة

فاطمة العامري

© 2018 Qindeel printing, publishing & distrubtion

لا يجوز نشر أي جزء من هذا الكتاب، أو نقله على أي نحو، و بأي طريقة، سواء أكانت إلكترونية أم ميكانيكية أم بالتصوير أم بالتسجيل أم خلا ف ذلك، إلا بموافقة الناشر على ذلك كتابة مقدماً.

الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي الناشر

موافقة « **المجلس الوطني للإعلام**» في دولة الإمارات العربية المتحدة
رقم: MC-02- 01-8419852 تاريخ 2018/8/5

ISBN: 978 - 9948 - 24 - 970 - 2

قنديل | Qindeel

للطباعة والنشر والتوزيع
Printing, publishing & Distribution

ص.ب: 47417 شارع الشيخ زايد
دبي – دولة الإمارات العربية المتحدة
البريد الإلكتروني: info@qindeel.ae
الموقع الإلكتروني: www.qindeel.ae

© **جميع الحقوق محفوظة للناشر** 2018

الطبعة الأولى: أيلول / سبتمبر 2018 م – 1440 هـ

أُنجزت هذه المجموعة القصصية بإشراف

القاص إسلام أبو شكير

في إطار برنامج دبي الدولي للكتابة

المحتويات

مقدمة..... 11

لا أحد..... 13

ملح.. سكّر.. حبّ..... 19

الوَجْه..... 27

شششش..!..... 37

ظل..... 43

سيّد المفاجآت..... 49

رسالة إلى لص..... 55

كرة صوف..... 59

حمّام آدم..... 63

حكّة..... 71

القلم (راء)..... 79

خيبة قلب..... 85

لا جديد..... 89

تفاصيل (حبــ)ــر..... 95

على شفا ذاكرة..... 101

صرت قاصّة..... 105

مشروع نابض.. وجيل واعد

منذ إطلاق «**برنامج دبي الدولي للكتابة**» عام 2013، تحت رعاية سمو الشيخ أحمد بن محمد بن راشد آل مكتوم، رئيس **مؤسَّسة محمد بن راشد آل مكتوم للمعرفة**، كان علينا مضاعفة الجهود؛ لنكون أكفاء لتحمُّل مسؤولية إعداد جيل من الكتَّاب الشباب لحمل مشعل الفكر، وليصبحوا في مصاف الكتَّاب العالميين، وقد آلينا على أنفسنا أن نذلِّلَ كلَّ العقبات التي تحُول دون نجاح هذا المشروع الحيوي النابض، الذي يعكس وجهاً حضاريّاً آخر من وجوه دبي.

وها نحن ذا، نرى عشرات الكُتَّاب الشباب الذين تخرجوا في البرنامج في مختلف حقول الكتابة، حيث الرواية والقصة والترجمة والكتابة للأطفال واليافعين، والأمل معقود باتجاه فنون كتابية أخرى؛ ليكتمل المشهد الإبداعي مع جيل موهوب يتقن فنون الكتابة الاحترافية، حسب منهج علمي ولغوي، وتقنية صحيحة، جيل تدرَّب على أيدي أساتذة أكفاء، نقلوا له المعارف والخبرات والمهارات اللازمة؛ لتكتمل دورة المشهد الاحترافي، والهدف الكبير أن نصل بهم إلى العالمية.

لقد أعطى برنامج دبي الدولي للكتابة للشباب الموهوبين إبداعيّاً، جرعةً من الأمل ليحقّقوا حلمهم، ولم نكتفِ بتدريب الموهوبين داخل الإمارات؛ بل انطلقنا عربيّاً عبر ورشٍ تدريبيَّةٍ في تونس ومصر والكويت، متجاوزين الحدود الجغرافية للوصول إلى الشَّباب العربي في بلدانهم، وإطلاق ورشات تدريبية مع مدربين محليين مشهود لهم بالكفاءة؛ لتصبحَ الفائدةُ من البرنامج أوسعَ وأشمل.

لقد كان هدف البرنامج منذ البداية، دعم المؤلفين والوصول بهم إلى العالمية، في شتَّى مجالات المعرفة من العلوم والبحوث إلى الأدب، وقد لمسنا نتائج طيبة خلال الورشات الماضية؛ فقد فازت كتب من البرنامج بجوائز مرموقة، وبات يُنْظَرُ إلى هذه التجربة بكثير من التقدير والاحترام داخل الإمارات وخارجها. وها نحن اليوم ندفع بكوكبة جديدة من خريجي البرنامج إلى الساحة الثقافية، عبر هذه الكتب المتميزة التي أُنْجِزَت خلال البرنامج، ونحن على يقينٍ بأنها ستكونُ موضعَ تقديرٍ وترحيبٍ من القرَّاء والنقَّاد والمهتمِّين.

جمال بن حويرب

المدير التنفيذي

لمؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم للمعرفة

لا أحـد

كان اسمي في ما مضى (.....).. لا يهُمّ.

يُنادونني اليوم (ثامر)، وقبل هذا كنتُ أنادى (طَ 13)، وهو الاسم الذي أُطلِقَ عليّ عندما سُجّلتُ في دار الرعاية، أي: بعد وفاة أسرتي في حادث سيّارة أثناء عودتنا من رحلةٍ بريّة.

في أوّل يومٍ لي في الدار، كانت أطرافي ترتعش، من برودة المكان؟ أم من الخوف..؟ لا أتذكّر. غير أنّ المشرفة قدّمت لي ثياباً جديدة، ثمّ وضعت على صدري دبّوساً كُتب عليه: (ط13). سألتُها:

ـ ما هذا؟

ـ هذا اسمك.

ـ لكن.. أنا.. أمي كانت تنـ...

ـ لا تضيّع هذا الدبوس!

وانتبهتُ في ما بعد؛ إلى أن هناك الكثير من «الطاءات».. طفل، طفلان، ثلاثة.. الكثير من الأطفال حولي وُضعت على صدورهم دبابيس تُشبه دبّوسي؛ وكما كنتُ أنا (ط13)، كان هناك (ط12)، و (ط10)، و (ط5)، وهكذا... وعرفتُ في الأيام التالية، أن إدارة الدار وضعتها لتنظيم مجموعاتنا، والتمييز بيننا، وحتّى يتمّ توزيع حصصنا من الألبسة والأغطية والطعام بالتساوي!

لم يمضِ شهرٌ على مكوثي في الدار، حتى نوديت:

ـ ط 13!! احضر إلى مكتب المشرفة.

جئتُ؛ فقابلت السيدة (جميلة) وزوجها السيد (أحمد). كانت نحيلة الجسد، رقيقة الملامح، ترتدي ثوباً أسود طويلاً. تأملتني للحظة، ثم حضنت وجهي براحتَي يديها الناعمتين، وقالت في حنان بالغ:

ـ حبيبي.. إنّه هو تماماً!

ثمّ ضمّتني إلى صدرها، وانحدرت من عينيها دمعتان مسحَتهما بطرف إصبعها، ثم تناولت يدي ورفعتها تقبّلها مرّاتٍ ومرّات. قالت المشرفة:

ـ هذه ماما جميلة!

وبعد ذلك اللقاء، أخذتني السيدة جميلة وزوجها إلى

منزلهما. كان منزلاً كبيراً جداً، لم يلفت انتباهي فيه سوى... صوري! صوري على الجدار. على الطاولة. فوق المدفأة. قرب السرير. وفي كلّ مكان تقريباً!

تأملتُ صوري، وأنا ألعب. وأنا أرسم. وأنا حائزٌ على جائزة تميّز. وأنا أرتدي شنباً مستعاراً.. متى حدث كلّ هذا؟ حدّقت في صورةٍ من الصور، فانتبهتُ إلى الاسم المدوّن في شهادة التكريم: (ثامر). وأدركت أنّ هذا الذي في الصورة ليس أنا.. أنا نسخةٌ منه، نسخة من النسخ الأربعين. النسخ التي طبعتها الأقدار بذات الملامح والهيئة؛ وباستثناء نقطةٍ على صفحة وجهه اليسرى، لم يكن لأحدٍ أن يفرّق بيننا، فنحن شكلان متماثلان.. كحبّة فول مُنفلِقة!

بعد عدّة أيّام؛ اقترَبَت مني السيّدة جميلة وقالت:

ـ اسمك القديم قد تغيّر، أنت الآن (ثامر).

ـ لكن.. كان لي اسـ....

فرَكَت رأسي مداعبةً، ثمّ مضت!

* * *

في الأيام التالية، غيّرت السيدة تسريحة شعري، ومنحتني غرفة مليئة بالألوان والرسومات ودفاتر التلوين، وقالت بسعادة:

ـ كلّها لك!

أخبرتُها أنني لا أجيد الرسم، فعيّنَت لي مدرّساً خاصاً يعلّمني الرسم، وآخر يعلّمني دروس الموسيقى التي لم أكن أستطيع قراءة رموزها، أو فهم طريقة الربط بين تلك الرموز والمفاتيح على الآلة. هذه ليست هواياتي!

وأذكر أنّني حينما أخبرتُها أنّ إدارة المدرسة طلبت صورة لي لتجديد ملفّات الطلبة، أخرجت من محفظتها صورة من الصور الكثيرة التي تحتفظ بها وقالت:

ـ ما من داعٍ لالتقاط صورةٍ أخرى!

ووُضعت تلك الصورة في ملفّ المدرسة، لأكون أنا هو!!

لم يكن ذلك كلّ شيء.. كانت السيدة تأخذني كلّ يوم إلى غرفتها، فأقف أمامها مدة نصف ساعة؛ لترسم بقلم الكحل نُقطةً على صفحة وجهي اليسرى، تماماً كشامة ابنها. كانت تخاف أن تُمحى تلك الشامة إثر قُبلةٍ، أو أن تسيل أثناء اللعب مع الأصدقاء؛ فمنعتني من الخروج معهم، ولم تعد تقبّلني على خدّي الأيسر. وفي أوقاتٍ كثيرة كانت تحضن وجهي وتتأمّله، ثمّ تغرق في نشيج طويل!

أمّا زوجها، السيّد أحمد، فقد كان يأخذني معه كلّ يوم جُمعة إلى المقبرة، فينكبّ باكياً أمام قبرٍ كُتب عليه اسمي..

ثامـر.. ونقـرأ الفاتحـة معـاً، علـى روحـي!

صحيـح أنّنـي كنـت أحـبّ ذلـك الاهتمـام الكبيـر مـن السـيّدة جميلـة، وأحـبّ ذلـك الحنـان والحضـن الدافـئ، بـل كنتُ سـعيداً أننـي حظيـتُ بمـكان جديـد، وأسـرةٍ جديـدة، ولكنّنـي كنـتُ فـي أحيـانٍ كثيـرة أحـنّ لنفسـي وهواياتـي وأصدقائـي وأسـرتي وأمّـي وأبـي. أحـنّ لأن أكـون أنـا أنـا.. لا ثامـر.

وصـرتُ كلمـا وقفـتُ أمـام المـرآة، أحـدّق فـي وجـهٍ سـالت عليـه الشـامة حبـراً بمـاء عينـي، متسـائلاً:

ـ من تكون أنت؟

ويتردّد صدى الجواب فيّ:

ـ أنت... لا أحد..

ملح.. سكّر.. حبّ..

«براعـة.. ب.. ر.. ا.. ع.. ة..»؛ وكمـا يفـكّك المركّبـات الكيميائيّة، لجأ إلى تفكيك الكلمات. بدت له في البداية أنّها الطريقـة الأسـهل لإدراك معانـي الأشـياء وكُنهها.

وتبيّـن لـه فـي مـا بعـد؛ أنّ الكلمـات أصعـب؛ إذ كانـت تحمـل معانـي أكثـر، وتفرّعـاتٍ أكثـر، ومشـاعر أكثـر، وارتباطـاتٍ تبـدو أشـدّ غرابـة؛ إذا مـا قورنـت بالكيميـاء. ككلمـة «حـبّ» التـي التقطها مـرّة مـن إحـدى الحمـلات الدعائيـة علـى التلفـاز، فسـأل مربّيتـه:

ـ ماذا تعني كلمة حبّ؟

عانقتـه عناقـاً طويـلاً، ثـمّ قالـت بعـد أن طبعـت قُبلـة رقيقـة علـى خـدّه:

ـ هذا حبّ!

ولكنّـه، فـي مـا بعـد، شـكّ فـي حقيقـة كلمـة «حـبّ»؛ عندمـا قامـت إحـدى السـيّدات مـرةً بقـرص خدّيـه بقـوّة وهـي تضغـط علـى أسـنانها وتقـول:

– حبيبي حبيبي..

وظلّ كثيراً يتساءل: ما العلاقة التي تربط القرص بالحبّ؟!

ثم خلَصَ إلى حقيقةٍ مؤكّدة: إنّ الكلماتَ أكثر تعقيداً من مركّبات الكيمياء، والحبّ إذاً قد يكون في هيئة قُبلةٍ وعناقٍ مرّةً، وقرصةٍ مرّةً أخرى، ولهذا فضّل أن يستخدم كلمة «حبّ» وقت التقبيل والعناق فقط، ويكتفي ببضع كلماتٍ تعبِّر عن حاجات أساسية أقلّ تعقيداً، ككلمات: جوع، عطش، نوم، كيمياء، مركبات، عناصر، أرقام، براعة..

براعة..

لم تكن من الكلمات الأقلّ تعقيداً، ولم يكن في النيّة أن يضمّها إلى قاموسه البسيط، وإنّما ضمّها لكثرة ما تردّدت على مسامعه. وممّا سهّل عليه أمر تعلّمها وحفظها؛ أنّها كانت ترتبط بملامح متشابهة تتكوّن على أوجه الناس وهم يردّدون له: «هذه براعة فائقة!».. «أنت بارع!».. كالحاجبين المرفوعين إلى الأعلى، والعينين المتّسعتين، والابتسامة العريضة. وأدرك أنها كلمةٌ تنمّ عن شيءٍ رائع يفعله، وهذا الشيء الرائع ليس سوى قدرته العجيبة على فكّ المركّبات الكيميائية ودمجها، ومعرفة حقيقتها لمجرّد تذوّقها وشمّها.. وهذا إذاً محض البراعة!

نمت هذه القدرة مع دروس العلوم التي كانت تقدمها له

مربيته. ولسبب ما انجذب إلى الكيمياء، ووجد الأمر ممتعاً وهو يحفظ عناصر «الجدول الدوري»، ويكتشف العلاقات بينها. وممّا زاد الأمر متعةً؛ إدراكه أنّ كل الأشياء حوله ليست سوى «مركّبات»؛ فحتى الماء الذي يشربه، والهواء الذي يتنفّسه، والأرض التي يمشي عليها، والطعام الذي يتناوله؛ كلّها «مركّبات». وصارت الفكرة أكثر جنوناً؛ عندما أخبرته المربّية أنّه هو نفسه عبارة عن مزيج من المركّبات الكيميائية!

لكنّ الأمر برمّته يعود إلى الليلة التي شاهد فيها مربّيته وهي تقلّب قطع الفحم طلباً للتدفئة. ولمّا خمدت النار في ما بعد، وانشغلت عنه مربّيته، شعر بفضولٍ غريبٍ؛ جعله يحاول اكتشاف الفحم، فكيف أُشعلت به النار؟.. ولماذا هو أسود؟.. وكيف تغيّر لونه؟.. فأخذ كتلاً من الفحم، جمعها في قبضته. شمّها. ثم قرّبها إلى فمه ليتناولها. كان الطعم أشبه بمسحوقٍ دافئٍ مرّ، فعلِقت ذرّاتٌ منه في حلقه، وظلّ يسعل سعالاً قويّاً؛ جعل وجهه يحمرّ، وعينيه تدمعان. ثمّ أحسّ بوخزٍ غريبٍ في دماغه، وخزٍ يشبه الضغط بقوّةٍ على منطقة معيّنة في الجزء السفليّ من رأسه، ثمّ انتبهت له مربّيته؛ فأسرعت نحوه، لتجده جالساً على الأرض يردّد:

– فحم.. فحم.. ف.. ح.. م.. كربون.. هيدروجين.. أوكسجين..

حاولت أن تفتح فمه لتستخرج ما فيه، لكنّه كان قد ابتلع جزءاً كبيراً من الفحم، فأسرعت إلى المطبخ تغسل فمه ويديه. وبّختـه كثيراً على فعلته، ولكن سرعان ما تحوّلت ملامحها الغاضبة إلى ملامح وديعة حنونة؛ عندما اعتذر منها وعانقها وقال:

ـ «حبّ»..

ضحك، فبانت أسنانه سوداء جرّاء ما ابتلعه من الفحم، فضحكت، ثم قدّمت له مكعّب «سكّر» يزيل السواد والمرارة عن لسانه؛ وما إن قضم المكعّب، حتى أحسّ بالوخز ذاته في الجزء السفليّ من رأسه، فردّد كما لو أنّه يُلقَّن:

ـ سكّر.. س.. لكّ.. ر.. كربون.. هيدروجين.. أوكسجين..

ـ كيف يحدث هذا معك؟

تساءلت مربّيته بِحَيرة.

صحيحٌ أنها أعطتهُ دروساً في الكيمياء، وأعانته على حفظ عناصرها، لكنّها لا تذكر أنّها شرحت له شيئاً عن تركيب الفحم أو السكّر. جالت بعينيها في المكان، وانتبهت إلى الرفّ الخشبي الذي صُفّت عليه مجموعة من البهارات والتوابل. فتناولت «مملحة». خضّتها مرّتين على كفّها، وقدّمته له ليجرّب الملح. وكالمرات السابقة، وبالحالة نفسها، قال:

ـ ملح.. م.. ل.. ح.. صوديوم.. كلور..

ثـمّ جعلتـه يتـذوّق كلّ مـا يمكـن، ومـا لا يمكـن تذوقّـه فـي المطبـخ: البهـارات. الخـلّ. القهـوة. الصابـون. الحمضيّـات.. وعرفهـا جميعـاً..

ولـم يلبـث طويـلاً علـى تلـك الحالـة، إذ إنّـه بعـد أسـبوعٍ واحـد فقـط، لـم يعـد يتـذوّق المـوادّ فحسـب، بـل صـار يركّـز فـي رائحتهـا، فتنفتـح لـه مغاليقهـا، وينطلـقُ لسـانه مـردّداً كل عناصرهـا ومكوناتهـا؛ فأيقنـت مربّيتـه تمـام اليقيـن، أنّهـا أمـام موهبـةٍ لا نظيـر لهـا.

بدا الأمر غريباً بالنسبة لأبيه، فسأل المربّية مرّةً:

ـ هـل يُعقَـل أن يكـون الأمـر متعلّقـاً بحادثـة ولادتـه؟ كان يومـاً منحوسـاً بالفعل.

ـ لا أدري.. أرجوك، لا أريد تذكُّرَ الأمر!

وفـي كل الأحـوال، وحتـى وإن حاولـت تجاهـل الحادثـة أو نسيانها، فـلا يُمكـن لأحـد أن ينكـر أنّهـا مـن الحـوادث التـي تثيـر فـي النفـس مـن الحـزن والأسـى الكثيـر. فقـد وُلـد قبـل موعـد ولادتـه المقـدّرة فـي شـهر شـباط. لا يُعـرَف بالتحديـد فـي أيّ يـوم، لكنّـه كان يومـاً مـن أيّـام خسـوف القمـر؛ ولهـذا السـبب.. ولهـذا السـبب وحـده.. منعـت جدّتـهُ القابلـة أن تدخـل، وأمـرت

ابنتها بإغلاق رجليها حتى انتهاء مدّة الخسوف، وعندما لم ينجح الأمر، دفعَت برأسه إلى الداخل، ما جعله حبيس أحشاء أمّه طيلة ساعة ونصف. كانت أمّه تصيح وتنتفض مخلوعة القلب، لكنّ الجدة قالت في صوتٍ يُشبه الفحيح:

ـ إلا الخسوف.. إلا الخسوف.. ليس موعداً مناسباً!

وبعد انقضاء المدة، وولادته، توفّيت أمه. لهذه الأسباب مجتمعةً؛ كُتِبَ عليه أن يتأخّر طوال عُمره. ساعةٌ ونصف من التأخير، جعلته ـ في ما بعد ـ يتأخّر في كلّ شيء. الحبو. المشي. النطق.. وحتى إدراك الأشياء والكلمات والحروف.

* * *

في يوم من الأيّام، قرّرت مربّيته أن تشركه في مسابقة أعدّتها وزارة التعليم، بالتعاون مع وزارة الصحّة، للطلبة الذين يبرعون في مجال الكيمياء؛ فسجّلت اسمه، وخضع لتجربة الأداء، ثمّ دخل المسابقة ككلّ الطلبة. لم يلتفت أحدٌ حينئذٍ إلى فكّه المتهدّل، وعينيه الغائرتين، وإيماءاته البطيئة بعض الشيء؛ فأمام قدرته الفذّة، وبراعته الفائقة، لم يكن لأحد أن ينتبه إلا للمركّبات والعناصر التي يكتشفها ويدركها دون سواه، واستطاع أن يُقنع اللجنة والحكّام والأطبّاء والمعلمين، كما أقنع مربيته، أن رأسه يضمّ دماغاً أقرب للمعجزة؛ وبلا منافسٍ أو منازعٍ؛ أحرز الفوز.

بعد أسبوع من التكريم، جاء مجموعة من الأطبّاء الزائرين والتقوا بأبيه؛ رغبةً منهم في إجراء بحث عنه، عن قدرته، آليّة عمل عقله؛ وأقنعوه بضرورة إجراء عمليّة جراحيّة في الدماغ لاكتشاف خلل التأخّر وموضع التفوّق؛ فكان هذا ما تمّ الاتّفاق عليه مع أبيه.

* * *

في يوم العمليّة، حلقوا شعر رأسه. بدا خائفاً جدّاً، فأمسك بيد مربّيته وقال:

ـ خوْف.

شدّت بقبضتها على أصابعه، ثمّ ضمّته بحنان وقالت:

ـ حُبّ، كل شيء سيكون على ما يرام.

قبّل أصابعها وقال:

ـ حُبّ.

وحال دخول الأطبّاء، سمع من أحدهم كلمة «براعة».

فصاح لمربّيته مبتسماً:

ـ براعة!

واطمأنّ في نفسه إلى أنّ «براعة»؛ لن تعني شيئاً سوى حاجبين مرفوعين، وعيون مُعجبة واسعة، وابتسامة عريضة.

بقـي مسـتيقظاً أثنـاء الجراحـة، وطلـب منـه الأطبّـاء ترديـد بعـض الكلمـات التـي يحفظهـا، فـكان يـردّد:

ـ كيمياء.. ماء.. ملح.. سكّر.. جوع.. عطش..

وشـرعوا فـي جراحـة دماغـه، «براعـة.. فـرح.. حـبّ..»، وإجراء ثقبيـن على جانبي رأسـه، «عناصـر.. مركّبـات.. رقـم..»، وإدخـال بعـض الأدوات المعدنيّـة، ولـم يتوقفـوا حتّـى صمـت!

وبعـد مـدّة، اسـتيقظ.. هـرع إليـه الأطبـاء، وطلبـوا منـه تـذوّق مكعّـب سكّر، لكنّـه ظـلّ يلعقـه فقـط. ثـمّ سـألوه ترديـد الكلمـات التـي يحفظهـا، مثـل: «كيميـاء وحـبّ وبراعـة»، لكنـه لـم يفتـح فمـه سـوى بتمتمـات أشـبه بتمتمـات طفـل فـي الثالثـة مـن عمـره، ثـمّ مـصّ إبهامـه.. وبـدأ يحبـو!

الوَجْـه

نشأتُ في منزلٍ خالٍ من المرايا!

ولـم أرَ وجهي فـي «مـرآة»، بـل لـم أعـرف معناهـا أصـلاً، حتى بلغـتُ التاسـعة مـن عمـري، أي قبل سـنواتٍ من اليـوم، وبالتحديد عندمـا طلبـت معلّمـة الرسـم منّـا أن نرسـم أنفسـنا. كنـتُ أظـنّ أن النفـس وعـاءٌ يحتـوي علـى كل مـا نُحبّـه ونكرهـه، مـا يُعجبنـا ومـا لا يعجبنـا، مـا يفرحنـا ومـا يُحزننـا، مـا نرتـاح لـه ومـا نرتـاع منـه، مـا نؤمـن بـه ومـا نخشـاه؛ لـذا رسـمتُ هـذه الرسـمة:

لكنّني فوجئتُ عندما حصلتُ على درجة 3/ 10، ثمّ انتبهتُ إلى أنّ جميع زملائي في الفصل قد رسموا وجوهاً تُشبههم، وفيما كنتُ أحاول البحث عن إجاباتٍ لتساؤلاتي: كيف عرفوا أن أشكالهم تبدو هكذا؟ وكيف خمّنوا بهذه الدقّة أحجام أنوفهم؟ وآذانهم؟ وألوان أعينهم؟ وشاماتهم؟

همس لي (يوسف)، وهو الثالثُ في ترتيبه على الفصل:

ـ لماذا لم ترسم نفسك؟

ـ لكن.. لكنّني فعلت.

دفع نظّارته بإصبعه إلى عينيه، فتكوّنت آثار بصمةٍ شوّشت عليه الرؤية، فنزع النظّارة ليمسحها بطرف قميصه، وقال:

ـ أبلة وداد كانت تقصد أن نرسم وجوهنا.. حسناً، دعني أرى.. كم هي درجتك؟

شردتُ عنه متطلّعاً في وجوه زملائي من حولي. لا يمكن لرسوماتهم أن تكون محض مصادفة، فحامد مثلاً رسم وجهاً أسمر بأنفٍ أفطس وعينين كبيرتين جاحظتين كفنجاني قهوة. وطلال رسم وجهاً أبيض ـ ببياض الورقة ـ يُغطّيه النمش. أما منصور فقد رسم وجهاً أحمر ممتلئاً، يعلوه شعرٌ بنّيّ أقرب إلى معكرونة «السباغيتي»؛ وبغضّ النظر عن قدراتهم ومواهبهم في الرسم، إلا أنّهم رسموا أنفسهم.. أقصد

وجوههم.. أشياء أراها أنا.. فكيف رأوها؟!

اقتربتُ من المعلمة بعد تردّد:

ـ أبلة وداد..

ـ أوه! سعيد!.. إنّها المرّة الأولى التي لم تؤدِّ فيها واجبك. ما المشكلة؟

ـ لقد.. أدّيتُه.

ـ أقصد أني طلبتُ منكم أن ترسموا وجوهكم يا سعيد، لكنّك لم تفعل.

ـ وجوهنا؟

ـ سأعطيك فرصةً أخرى. عُد إلى المنزل، وانظر إلى المرآة، وحاول أن ترسم نفسك. سأنتظرُ منك الواجب يوم الثلاثاء القادم.

رغبتُ كثيراً في سؤالها «كيف؟»، وماذا تقصد عندما قالت: «انظر إلى المرآة»، لكنني لم أجرؤ، واكتفيتُ بالصمت، وظلّ الفضول ينخرُ قلبي كالنمل الأبيض، حتى جاءت أمّي تأخذني إلى المنزل، فسألتها في الطريق:

ـ ماما؟ أبلة وداد قالت انظر إلى المرآة وارسم نفسك.

لم تجبني، فأعدتُ الكرّة:

ـ ماما! عندي واجب.. قالت إنّها تنتظره يوم الثلاثاء القادم.

ـ طيّب..

وسوى كلمة «طيّب»؛ لم تقل شيئاً آخر حتى وصلنا إلى المنزل، وقضيتُ فترة ما بعد الظهيرة كلها وأنا أركّز ببؤبؤي عينيّ على أنفي، لعلّني أراني، فأرسمني، ولما باءت محاولاتي كلها بالفشل، ذهبتُ إلى المطبخ لأعاود السؤال:

ـ ماما؟ أين أجد مرآة؟

ـ لا توجد مرايا في منزلنا يا سعيد. كفّ عن الإلحاح.

ـ لنشترِ واحدة إذاً.. هل هي غالية الثمن؟

ـ كلا.

ونحّتني جانباً فيما كانت تقوم بإعداد صينيّة الشاي لأبي، فانتبهتُ إلى انعكاسها في الصينيّة الفضّيّة، فقلت:

ـ ماما؟

كانت ملامحها واجمة، وكذلك كانت ملامح المرأة في الصينية. قرّبت وجهي وقبل أن أفتح فمي بالسؤال؛ تراجعت أمي لتغسل الأكواب، فاختفت شبيهتُها في الصينية، ثم قالت:

ـ هذا يكفي يا سعيد! صرعتني! لا داعي للمرايا.. لابدّ أن نقدّر شعور الآخرين.

ـ لكـن مـا المشـكلة؟ أوه.. تقصديـن سـيف؟ لكنـه لا يخـرجُ مـن غرفتـه إلا نـادراً.. ماما صدّقينـي أحتـاج أن أرى نفسـي.. واللـه عنـدي واجـب.

تركتني حاملةً الصينية في يديها، فبدأت أبحث في المطبخ عـن أوانٍ أو صـوانٍ فضيـة كالتـي حملتهـا أمـي. سـحبتُ كرسـياً، ووقفـتُ فوقـه، ثـمّ علـى رؤوس أصابعـي، حتـى طلـتُ الـرفّ الثاني، واهتديـتُ أخيـراً إلـى طبـقٍ فضـي عريـض تسـتخدمه أمـي غالبـاً للضيـوف فـي المناسـبات المهمّـة كالأعياد. وحالما سـحبته، رأيـتُ صبيّـاً.. رأيتنـي.. شـعري أسـود. عينـاي بنّيّتـان ضيّقتـان. حاجبـاي مقوّسـان كهلاليـن يُشـبهان أهلّـة «رمضـان». ولـي أنـفٌ دقيـق كالمنقـار.. اقتربـت، فاقتـرب انعكاسـي. وكزتـه بإصبعـي، ففقـدت توازنـي، وانزلقـت سـاقي فـي المغسـلة. توجّعـت، وقمـتُ واقفـاً داخـل المغسـلة، متوجّعـاً، فرأيـت ملامحـه متوجّعـة مثلـي. حككـت رأسـي، فحـكّ رأسـه. أغمضـتُ عينـاً واحـدة، فأغمـض عينـه. وعرفـتُ أخيـراً مـا كانـت تقصـده المعلّمـة!

نزلـتُ مسـرعاً حامـلاً الطبـق إلـى غرفتـي، وانطرحـتُ علـى بطنـي أفكّـر وأنـا أتأمّـل انعكاسـي: كيـف لـم يخطـر فـي بالـي أن أراك؟ لكنّـه أمـرٌ طبيعـي. فكيـف سـأبحثُ عـن شـيءٍ لا أعرفـه؟ وحتـى فـي عُمـرٍ أصغـر كانـت أمّـي تمسـح براحتيهـا علـى وجهـي لتزيـل عنـه مـا علـق بـه مـن آثـار النـوم، وكانـت تقـول لـي علـى

الـدوام: «نظّـف ياقتـك».. «امسـح أنفـك».. «رتّـب شـعرك».. وكانـت أمـي هـي مرآتـي!

ثـمّ فكّـرتُ فـي وجهـي وملامحـي. هـل يعقـل أصـلاً أن يختـزل هـذا الوجـه كلّ مـا فـي نفسـي؟ كلّ أشـيائي التـي أحبّهـا وأكرههـا؟ هـل يمكـن لسـواد الشـعر أن يكـون صـورةً عـن مخاوفـي؟ وهـل يُعقَـل لتلـك العينيـن الضيّقتيـن أن تخفيـا كل طموحاتـي وأحلامـي وتطلعاتي؟ وبـدأتُ أشـكّ.. وكان لابـدّ مـن معرفـة حقيقـة هـذا الوجه!

وفـي الحـال، عبَـرت مخيّلتـي صـورة أخـي (سـيف). لطالمـا شـعرتُ بالذعـر منـه، كان وجهـه صامتـاً غامضـاً، أبيـض، خاليـاً مـن أي ملامـحٍ للتعبيـر عـن فـرحٍ أو حـزنٍ، أو رضـا أو سـخطٍ، أو رجـاءٍ أو أملٍ أو يـأس. وسـوى صوتـه المنكسـر وحـركات يديـه؛ لـم نكـن لنعـرف أيّ شـيء عـن حالتـه. كيـف لنـا أن نعـرف؛ ونحـن أصـلاً لا نـراه؟ نحـن لا نـرى سـوى رأس أشـبه بـرأس المومياء؛ بذلـك القنـاع الأبيـض الـذي يرتديـه؛ رغـم مـرور سـنواتٍ علـى حادثـة احتـراق وجهـه!

كيـف يبـدو أنفـه؟ وكيـف تبـدو شـفتاه؟ وكيـف تبـدو تلـك العينـان المنغمسـتان تحـت البيـاض؟ ليتنـي أسـتطيع رؤيتـه، إذاً لعرفـتُ معنـى أن يعبّـر وجهـك عنـك. إذاً لاكتشـفتُ وجهـي. إذاً لعرفـتُ العلاقـة بينـي وبيـن وجهـي. لكـن كيـف وأنـا ممنـوع مـن دخـول غرفـة سـيف؟!

في يوم الجمعة، وهو اليوم الوحيد الذي يخرج فيه (سيف) لأداء صلاة الجمعة، مثّلتُ المرض، وليسامحني الله. كذبتُ قائلاً لأمّي إنّني لا أستطيع الذهاب إلى المسجد، وعندما غادرَت غرفتي، أسرعتُ إلى غرفة (سيف). كانت غرفته في شكل مستطيل بجدرانٍ بيضاء عاريةٍ تماماً؛ إلا من نافذةٍ اختفت وراء الستارة القاتمة، وفي وسط الغرفة سريرٌ مرتبٌ، توازيه من جانبيه طاولتان. الأولى مكدّسةٌ بالأدوية والكريمات وعبوات الماء نصف الممتلئة؛ والأخرى، كانت خاليةً؛ إلا من حوضٍ محكم الإغلاق، بدا لي أنّه لكائنٍ يُربّيه. دنوتُ من الحوض، فرأيتُ نباتات زينةٍ انتصبت فوق جذعٍ مجوّف. طرقتُ على الحوض لأتبيّن ما فيه، ثمّ ملتُ برأسي إلى الجهة الأخرى، فأصابني الهلع لمّا رأيتُ جزءاً أملس من جسم ثعبانٍ يحاول نزع جلده الباهت الجاف القديم. تراجعتُ إلى الوراء؛ محاولاً تجاهل أنّ ثمّة «ثعباناً» معي في هذه الغرفة.

بدأت أفتّش. لابدّ أنّ سيف يحتفظ بصوره في مكان سريّ. فتّشت في خزانته. تحت السرير. وراء الستارة. ولم أجد شيئاً، لكنّني وجدتُ دفتراً أسود كان مخبّأً في أحد أدراجه، حُفر على غلافه: «يوميّات»، فخبّأته تحت قميصي، وأغلقت الباب، وعدتُ إلى غرفتي، وأنا أدعو الله ألّا يكتشف

(سيف) اختفاء الدفتر، وإلا سيقتلني.. سيهشّم عظامي بيديه العريضتين.

* * *

في المساء، أقفلتُ باب غرفتي وأطفأت الأنوار، ثم اختبأت تحت بطانيّة سريري مع يوميات (سيف)، مستخدماً مصباحاً يدوياً لأقرأ، فقرأت:

- اليوم: الثلاثاء، الموافق: 12/ 3/ 2002م.

«مرّت 5 شهور على حادثة احتراق وجهي. إلى الآن لا أستطيع أن أنظر إلى نفسي في المرآة. لا أدري ما الذي دعاني إلى قطع إجازتي ذلك اليوم، والإشراف على عمّال المصنع، كان ذلك خطئي الأكبر».

وقلّبتُ الصفحة وقرأت:

- اليوم: الخميس، الموافق: 14/ 3/ 2002م.

«.... وهكذا، صار منزلنا خالياً من المرايا تماماً. شكراً أمّي وأبي».

- اليوم: السبت، الموافق: 20/ 3/ 2002م.

«لا ألومها، من تستطيع تحمُّل العيش مع رجل لا يملك وجهاً؟ كان لابدّ من الانفصال».

- اليوم: الثلاثاء، الموافق: 1/ 4/ 2002م ـ كذبة إبريل.

«أحرقتُ اليوم كلّ صوري، فوجهي، إن صحّ أن أسمّيه وجهاً، هو أكبرُ كذبةٍ على الإطلاق.. أنا لا أشبهني».

- اليوم: الخميس، الموافق: 16/ 5/ 2002م.

«يُصادف اليوم يوم ميلادي، لم أطفئ شمعة.. لم أتمنّ أمنية.. كم أكره منظر النار!».

- اليوم: الأحد، الموافق: 25/ 6/ 2003م.

«ما زالت أمّي تطلبُ منّي أن ألجأ إلى مستشار أو معالج نفسي.. وما من مرّة دعتني للخروج ممّا تسمّيه «الجُحر»؛ إلا وكنتُ أرفض معانداً.. إذ هل يمكن أن يعيد هذا المعالج وجهي لي؟».

ومع توالي كلّ تلك اليوميّات، وقراءتها، كانت رغبتي في الحصول على مرآةٍ تتبدّد، وتتلاشى. فلم أعِدّ الواجب، ولم أحصل على درجة 10/ 10. واليوم، وبعد سنوات، لم يعد يهمّني أن أرى وجهي في المرآة؛ لأنّني.. ببساطة؛ تأكّدت أن وجوهنا لا تُشبهنا.. لا تُلخّصنا!

شششش..!

بـدأ الأمـر عندمـا كنـتُ أحـاول حفـظ قصيـدة لمـادّة اللغـة العربيـة، فانتبهـت إلـى عينيـه وهمـا تلاحقانني أينمـا اتّجهـت. هل كان يفعلهـا دائمـاً دون أن أنتبـه؟ أخـذتُ أتنقّـل مـن أقصـى الغرفـة إلـى أقصاهـا؛ وعينـاي فـي عينيـه؛ جرّبـت ذلـك مـراراً لأتأكّـد، حتـى وقفـتُ أمامـه ثـمّ خطـوتُ نحـوه. أدرتُ رأسـي إلـى اليميـن مـرّة وإلـى الشـمال مـرّة أخـرى، وعينـاي معلّقتـان عليـه.. نعـم.. إنّـه يتابعنـي!

اقتربـتُ أكثـر. ثبّـتُّ عينـيّ فـي عينيـه، فشـعرتُ أن بؤبؤيـه مصوّبـان نحـوي، فتعمّـدتُ أن أرمـش عـدّة مـرّات، وخيّـل لـي أنـه يرمـش معـي، يُغلـق عينيـه كلمـا أغلقتهمـا. يفتحهمـا كلمـا فتحتهمـا.. فغمـزت، وغمـز معـي.. ضحكـت، فعبـرت مسـمعي ضحكـةٌ مألوفـة.. عـدتُ والتفـتُّ إليـه، فكانـت ابتسـامته هـذه المـرّة أعـرض، كأنـه قـد ضحـك للتـوّ!

أمسـكتُ أطـراف الإطـار الـذي ضمّـه، ثـم وخـزت وجهـه

بقلمي. مالت شفتاه إلى الأسفل وبدا متوجّعاً. ضحكتُ، فسمعتُ الضحكة المألوفة ذاتها، ثمّ مررت إصبعي على الصورة، فشعرتُ بحرارةٍ تنبعث منها. أقصد من وجهه، أذنيه، أطراف يديه. وبدا لي أن صدره كان يعلو ويهبط ببطء، كما لو أنه.. كما لو أنه يتنفّس؛ وتأكدت أخيراً أن هذه الصورة.. صورة أبي.. حية!

وما كدت أفتح فمي، لأنادي أمّي، حتّى انتبهتُ إلى سبّابته يَلصقها على فمه:

ـ «شششش!»

همستُ متفاجئاً:

ـ أنت حيّ فعلاً!

ـ نعم

ـ اشتقتُ لك

ـ وأنا.. لنُبقِ الأمر سرّاً بيننا.

وأصبح هذا سرّي الجميل الذي لا أودّ أن أشاركه أحداً، لا أمّي ولا أخي ولا جدّتي.

وخشية فضح السرّ، كنتُ أنتظر الجميع لينام، فأحظى بفرصة مراقبته والحديث معه، وإخباره بتفاصيل يومي، حتى

إنني بدأت آكل معه، وأذاكر، وأحلّ مسائل الرياضيات إلى جانبه، وفي أحيانٍ أخرى كنتُ أقفُ أمامه أشكو له مناوشاتي مع أخي؛ الذي يأخذ دوري دائماً في اللعب بالجهاز اللوحي «iPad»، أو أشكو له معلّم العلوم كلما وبّخني لتقصيري في المادة. كان بطريقة ما يُطمئنني. يُسعدني بمتابعته. بابتسامته الراضية على شفتيه. بالمسمّيات التي يُطلقها عليّ، كـ «صديقي» و«شبيهي» و«مستر شجاع». بقُبلته التي كنتُ أحظى بها قبل النوم كلّما ألصقتُ وجهي على صورته.

دخل أخي مرّة عليّ وهو يفركُ إحدى عينيه الناعستين:

ـ إلى من تتحدّث؟

ـ كنت أذاكر.. كنت أراجع القصيدة.

لم أشأ أن أخبره. خفتُ أن يكتشف سرّي فيفضحه.

* * *

في يوم من الأيّام؛ اضطررت إلى حمل الصورة معي إلى مباراة كرة القدم التابعة لبطولة المدارس، أردته أن يحضرها؛ قلتُ لجدّتي ـ عندما سألتني عن السبب ـ إن ثمة خدشاً في الإطار سنصلحه بعد المباراة. ولسبب ما، لا أدري ما هو، ضحِكت جدّتي. لم أفهم سبب ضحكتها آنذاك، لكنني كنت سعيداً أنّ أحداً لم يعلّق على تصرفي.

حجزتُ له مقعداً عند جدّتي ليُتابع المباراة. كنتُ ألمحه وهو يضحك ويشجّعني؛ خاصّة عندما أحرزتُ هدفاً، وحملني أصدقائي على أكتافهم. سمعته صفّر وصاح:

ـ برافو.. برافو.. هذا ابني!

عدتُ تلك الليلة سعيداً جدّاً، ولشدّة سعادتي؛ أبقيته معي في الغرفة، أخبرته عن الفريق الذي سنلعب معه بعد تأهُّلِنا، وأخبرني هو عن فريقه الذي كان يلعبُ معه في «الفريج» بعد كلّ صلاة جمعة. لم يكن «كابتن» فريق، لكنه كان ماهراً جدّاً، وكان حلمهُ أن يصير لاعب كرة محترفاً، لكنه فضّل ـ في ما بعد ـ ذلك الزيّ البنيّ المميّز بالنجوم المصفوفة على كتفيه.

قضينا وقتاً ممتعاً معاً، وقبل أن أنام، سألته أن يحكي لي حكاية، ففعل..

«كان ياما كان، في قديم الزمان، في سالف العصر والأوان، بطلٌ شجاعٌ سريعٌ مغوار.

لا أذكر الحكاية بالضبط، لكنّني أذكر أنّني نمتُ تلك الليلة.. في حضن «بابا»!

في اليوم التالي، كنت عائداً من المدرسة مبكّراً، وأسرعتُ إلى «بابا» أخبره عن تكريمي اليوم كأفضل طالبٍ مشارك في النشاطات المدرسية، لكنني لم أجده. بحثتُ عنه في كلّ

مـكان. هـل يُعقـل أنّـه غـادر الصـورة أو الجـدار؟ هـل غادرنـي هـذه المـرّة أيضـاً؟ وشـعرتُ بوجـعٍ شـديدٍ فـي قلبـي وأنـا أتذكّـر تلـك الحادثـة؛ عندمـا كان يرتـدي زيّـه العسـكري، واقفـاً أمـام البـاب، فالتقطـت لـه أمّـي تلـك الصـورة، ثـمّ سـأله أخـي:

ـ بابا.. هل ستتأخّر؟

فرك رأس أخي مداعباً، وقال بحنان:

ـ كلا.. مسألة وقت حبيبي.

تشبّثتُ أنا بثيابه. التصقتُ به. طوّقت خاصرته قائلاً:

ـ بابا.. هل ستنساني؟

حملني إليه وقال:

ـ من ينسى روحه يا بابا؟

ظللت أبحث عنه، أريده معي دائماً.

ذهبـتُ إلـى غرفـة أمّـي. كان البـاب مواربـاً، فرأيتهـا تسـرّح شـعرها وهـي تبتسـم بخجـل، وانتبهـت إلـى تمتمـات شـفتيها. كانـت تضحـك مـرّة، وتمسـح دموعهـا مـرّة. بقيـتُ فـي مكانـي محـاولاً أن أصيـخ السـمع. مـاذا تقـول؟ لـم أسـتطع أن أفهـم، ففتحـتُ البـاب أكثـر، لأفاجـأ وأكتشـف:

أمّي تعرف سرّي!

ظِلّ

كان يضغطُ على أزرار لوحة المفاتيح بعنفٍ؛ حتى كاد أن يُحطّمها؛ وهو يكتب رسالة إلكترونية إلى المجلة:

ـ متى ستتوقّفون عن سلب حقّ الكاتب في التعبير؟ إنّها المرّة الثانية التي تدسّون أقلامكم بين صفحات قصصي وسطورها، وتقومون ـ دون إذنٍ منّي ـ بتغيير النهاية؛ فإذا كنتم مولعين بالتغيير؛ فصفحات الإعلانات مبسوطةٌ أمامكم، والأَوْلى أن تصحّحوا الأخطاء الإملائية التي تملؤها!!

وأرسلَ الرسالة وهو يهرشُ لحيته ويزفرُ بقوة، ثمّ ضغط على أسنانه وهو يتذكر قصته.

أمضيتُ أسبوعاً كاملاً حتى أنهيتُها. (سعيد) و (ميرة) شاء القدر أن يجمعهما؛ فكانت بينهما قصةُ حب جميلة، انتهت نهايةً سعيدة. أين المشكلة؟ ألا يُمكن لقصص الحبّ أن تنتهي بغير الحزن والمأساة والدموع؟ لماذا يقومون بتغييرها؟!

بعد ثلاث ساعاتٍ قضاها في التذمّر والشكوى حول حقوق الكاتب العربي، عبر حساباته في «تويتر» و«الانستغرام»، سطعت الشاشة برسالة جديدة على بريده الإلكتروني من المجلّة تحت عنوان: «قصة: كم أحبك! FW»:

ـ السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.. تحية طيبة وبعد،،

السيد: عبدالله سلطان، المحترم.

قمنا بإعادة إرسال رسالتك الأولى لك. في المرفقات ستجدُ قصتك الأصلية. نودّ أن نلفت انتباه حضرتك إلى أننا لم نُجرِ أي تغيير عليها. مقدّرين تعاونك معنا، وشكراً على ملاحظتك بشأن صفحة الإعلانات».

فتح الملف المرفق، ثم أدار بسبابته زرّ التمرير في جهازه المحمول، حتى وصل إلى الصفحة الأخيرة وقرأ:

«ليلتها بات (سعيد) حزيناً. تذكر ميره ورجفان يديها وتضرع عينيها، لكنه فضل الصمت، وتولى عنها وهو يشعر أن الألم ينشب مخالبه فيه، لا يدري أي سذاجه تلك التي جعلته يصدق أن الأحلام في الحُب تتحقق».

حكّ جبينه وهو يقرأ. عقد حاجبيه. مال برأسه محدّقاً في الأوراق الممزّقة على الأرض بنظراتٍ متوجّسة، ثمّ عاد يقرأ مرّةً فمرّة؛ لكن... لا!

هـذه ليسـت النهايـة التـي كتبتُهـا، فقصـة سـعيد وميـرة انتهـت نهايـة سـعيدة، ثـم إنّ هـذا ليـس أسـلوبي أصـلاً، وتلـك التـاءات فـي نهايـة الكلمـات.. خاليـة مـن النقـاط تمامـاً!.. أنـا لـم أكتـب هـذا النـصّ. هـذا مؤكّـد!

فتـح ملـفّ القصـص. أغلقـه. ضغـط علـى أيقونـة سـلّة المهمـلات. بحـث عـن نسـخة أخـرى، لكنـه لـم يجـد شـيئاً. هـل تكـون زوجتـي؟ مسـتحيل، هـي لا تعـرف الرقـم السـرّيّ لجهـازي المحمـول. هـل نسـيتُه مفتوحـاً فـي مكتبـي وأنـا أُعـدّ لنفسـي القهـوة؟ هـل كنـتُ شـارد البـال؟ أم نسـختُ جـزءاً مـن قصّـةٍ قرأتُهـا بالخطـأ؟.. أوه! المسـوّدات.. قـد أكـون أرسـلتُ مسـودةً بالخطـأ.. لا.. لـم أخطـئ.. النهايـة حتـى فـي المسـوّدات كانـت سـعيدة.

بـدأ ينقـر علـى ذراع كرسـيّه الجلـديّ بتوتـر، وبانـت علـى ملامحـه الحيـرة واضحـةً جليـة؛ عندمـا بـدأ يتمتـم هامسـاً لنفسـه وكأنـه فـي حـوارٍ مـع رجـلٍ آخـر:

ـ هل يُعقل أن يكون....؟

ـ لكن ماذا لو كان.....؟ وما السبب؟

ـ متى يمكن أن يكون قد حصل؟.. هل كنتَ غافلاً؟

ظـلّ حائـراً، ومـرّت سـاعة فأخـرى، يـدور بكرسـيّه كالبنْـدول، وبـردت قهوتـه، ولـم يتوصّـل إلـى جـوابٍ أو قـرارٍ أو نتيجـة؛

وعندما حلّت الساعة الخامسة مساءً، همّ بإطفاء الجهاز يائساً؛ لولا تلك النغمة التي نبّهته لوجود رسالة جديدة!

ـ عزيزي الكاتب: عبدالله

«أنا أحد القراء المعجبين بكتاباتك، لكنني سمحتُ لنفسي أن أخترق جهازك وأغيّر نهايه قصه سعيد وميره.. لأنها ببساطه لم تعجبني، كما قرأت عدداً من القصص التي أظنك ستنشرها لاحقاً، لأنني بطبيعه الحال شخص فضولي وعجول.. لا أطيق صبراً حتى يوم الأربعاء المقبل لأقرأ الجديد..

خالص تقديري

ظل».

احمرّ وجه عبدالله غيظاً وهو يقرأ الرسالة، فقرّب وجهه من جهازه، وكتب بالطريقة العنيفة ذاتها؛ التي كتب فيها للمجلة:

ـ والله عيب.. من سمح لك!!.. لقد تجاوزت حدودك، وسأقاضيك على فعلتك.. صدّقني سأقاضيك.. هذا انتهاكٌ لحقوقي الفكرية والأدبية.. ملاحظة: حريّ بك مراجعة دروس الهاء والتاء المربوطة بدلاً من دسّ أنفك في ما لا يعنيك.. نهاية، قصة، بساطة، بطبيعة.. كلمات تكتب بالتاء المربوطة لا الهاء!!

نمّت اختلاجة أهدابه عن المزيد من التوتّر والغضب، وعضّ شفته السفلى بغيظ حالما تلقّى رسالةً جديدة:

ـ «عزيـزي.. هـدّئ مـن روعـك قليـلاً، نحـن لسـنا بصـدد مراجعه دروس الإملاء الآن، أما في ما يخص حدودي؛ فأظنني شريك معك في عمليه الكتابه. وأما بشأن الحقوق.. لا أدري بصراحه عن أي حقوق تتحدث؛ ونصوص قصصك منشوره في كل وسائل التواصل الاجتماعي، مبتوره من اسمك، فإذا شئت أن تقاضي، قاضِ العالم أجمع. ملاحظه: والله أتعبت نفسك اليوم في كتابه مقال حول حقوق الكاتب العربي».

جالت عيون «عبدالله» في الرسالة، أعاد قراءتها مرتين ثم كتب:

ـ شريك؟! منذ متى صرت شريكاً لي في عملية الكتابة؟ هناك كاتبٌ واحدٌ لهذا العمود الأسبوعي في المجلة، هو أنا.. أنا فقط.. عبدالله

ـ حسناً.. لمن تكتب في هذا العمود الأسبوعي؟

ـ للناس.. للعالم..

ـ وأنا أمثّل الناس والعالم. ألا تنتبه أنني أسديت لك معروفاً بتغيير نهايه قصتك التي كانت أشبه بقصص الرسوم المتحركه الساذجه؟!.. هو معروف يلفت نظرك إلى أن: «وعاشوا في سعاده وهناء ونبات وخلفوا صبياناً وبنات» نهايه مملـه.. مستهلكه.. لا تحدث إلا في قصص الأطفال.. أسمّي لك: سندريلا؟ أم سنووايت؟

ـ غريبون أنتم معشر القراء، إذا كتبنا نهاية حزينة قلتم إن هذا الكاتب سيقتلنا أحياءً من الكمد، وإذا كتبنا نهاية سعيدة، فإننا ساذجون مملون، وكتاباتنا مستهلكة.. متى سترضون!

ـ وأنتم أغرب يا معشر الكتاب.

ـ ماذا تقصد؟ كيف؟

أعاد عبدالله إرسالها عدة مرات: «كيف؟»، لكنه لم يتلقَ رداً آخر. شعرَ بحاجة لمعرفة حقيقة هذا الظل، من يكون؟ ما اسمه الحقيقي؟.. حاول أن يبحث عن الاسم نفسه في قائمة متابعيه على وسائل التواصل الاجتماعي، لا بد أنه يتابعه، جرّب كل ما يخطر على باله من أسماء وهمية:

ـ ظِل.. الظِل.. Sh123 ..Shadow.. The Shadow.. ظلال.. ..shado

لكن لا شيء على «تويتر»، ولا شيء على «الانستغرام». بقي مدةً يتأمل الشاشة، فيما كانت محادثة الظل الغامض معلقة أمامه؛ ورغم أن الفضول كان يلوكُ قلبه وعقله، إلا أنه فتح ملفاً جديداً وكتب:

ـ كان يضغط على أزرار لوحة المفاتيح بعنفٍ حتى كاد أن يحطّمها.....

سيّد المفاجآت

يُسمّينه «الساحر»؛ أقصد بنات خالتي أشواق وبنات عمتي أمينة، ولا أستطيعُ التحديد، هل يسمّينه الساحر لهيئته؟ لطوله الفارع؟ لعينيه المغروزتين ببؤبؤين أسودين لامعين؟ لأنفه المستقيم الأشم بالتناسق؟ أم لتلك الخدع التي كان يمارسها في كلّ اجتماع للعائلة؟!

مرةً يخرج من كُمِّه وردةً حمراء نديّة يُهديها لإحداهنّ. ومرةً يحكّ أذنه فيخرج من ورائها قطعاً نقدية يقدمها للأطفال. وأحياناً يفرقع أصابعه ثلاث مرات فتضيء بشعلة يُشعل بها سيجارته؛ التي كلّما نفث دخانها ذابت ملامحه في غموضٍ شاعري. وأحياناً أخرى، تطلب منه نور وأسماء وشذى؛ أن يؤدّي لهنّ خدعاً سحرية؛ وكالعادة؛ يوافق. لن يُفوِّت فرصة واحدة للتباهي. يغيب ساعة، ثم يقف خلف طاولة بغطاء قماشيّ أبيض، ويبدأ بممارسة سحره؛ لتتوالى الشهقات والهمسات والضحكات؛ التي أدركُ في داخلي أنها

ليست للسلحفاة العجوز التي تخرج من العدم، ولا للقطع المعدنية التي تعبرُ سطحاً زجاجياً، ولا لمهاراته في التكهّن بأرقام البطاقات ورموزها معصوبَ العينين!

سألني مرّة:

ـ ألا يستهويكِ السحر؟

ـ أتسمّي هذا سحراً؟!

ـ ماذا تسمّينه أنتِ؟

ـ ألعاب.. أستطيع اكتشاف كلّ ألعابك؛ فالسلحفاة التي تُخرِجها، مخبّأة في جيبٍ سرّي تحت الطاولة. والقطع المعدنية ليست إلا قطعاً من الحديد التي تُسحب لخاتمك المصنوع من المغناطيس. أما تكهّناتك بأرقام ورموز البطاقات؛ فهي صائبةٌ دائماً، لأنها كلها مكرّرة، وأنت لا تستخدم سوى خمس بطاقات مميّزة فقط.

انفجرَ من الضحك، وقال لي:

ـ يبدو أنّ دروس الفيزياء مفيدة!

لا أستطيع أن أخفي شغفي الأبديّ بألعاب الخفّة والخدع والسحر؛ إنّها السبب الأول الذي دعاني لدراسة الفيزياء. في الواقع، كان «هو» السبب الأوّل. أنا الفتاة التي لطالما آمنت بقوة الجاذبيّة، بالسبب والنتيجة، بقانون (نيوتن) المعروف:

«لكلّ فعلٍ ردّة فعل»؛ جاء هو ليقلب موازين العلوم ومكاييل المنطق أمامي؛ فتذوب الأجسام بين يديه، وتنعدم الجاذبيّة تحت رجليه، ويتصلّب الماء ليمشي عليه! الرجل الذي يعبر الزجاج كالضوء، وينثر الأوراق في الهواء يحوّلها طيوراً.

أنا لا أقصد ابن خالتي (رائد) طبعاً؛ ذا السلحفاة العجوز والقطع النقدية والأوراق المكرّرة؛ بل أقصد (سيد المفاجآت)؛ الساحر الأول والأشهر في المنطقة؛ الوحيد الذي لم أفوّت عرضاً من عروضه؛ الوحيد الذي لم أستطع اكتشاف خدعه، وأسراره، وغموضه، ووجهه!

تقول أسماء، ابنة خالتي أمينة:

ـ أمجنونةٌ أنتِ؟ كيف تحبّين رجلاً لم تريه؟!

ـ هو ليس رجلاً عاديّاً يا أسماء.. بل ساحر.. ساحر.

ـ رائد ساحرٌ أيضاً!

ـ رائد مجرّد هاوٍ.. أستطيع اكتشاف كلّ شيءٍ عنه.

ـ كلّ شيء؟!

ـ ماذا تقصدين؟

ـ ألم تلاحظي نظراته؟ ابتسامته؟ مراقبته لك؟

ـ ماذا؟.. أنتِ تتوهمين!

ـ حسناً.. سنرى..

في اجتماع للعائلة مرة، جاء (رائد) معلناً حصوله على تذكرتين مجانيّتين في المقاعد الأولى لعرض (سيد المفاجآت). تمنّيت لو أحصل على تذكرة، لكنني لم أبُح لأحدٍ سوى أسماء بأمنيتي تلك. جاء رائد في ما بعد، وقال:

ـ أحقاً ما يُقال؟

ـ ماذا؟

ـ تودّين حضور عرض سيد المفاجآت؟

وفي لحظةٍ شعرتُ أنّ الكلام كلّه قد ضاع منّي؛ لم أستطع الردّ، ولعنتُ أسماء في سرّي.. الغبيّة الواشية، فبقيت صامتة؛ لكنني عندما رفعتُ رأسي؛ استقرّت عيناي في عينيه.. عينيه اللتين شعرتُ أنّه يخترقُ روحي من خلالهما. ارتبكت، فقد كان صامت الملامح يحدّق بي، ثمّ باغتني بضحكةٍ حِرتُ في تفسيرها أو فهمها؛ ما زاد من إرباكي، وقبل أن أعلّق، مدّ لي التذكرتين وغادر!

* * *

حضرتُ عرض سيد المفاجآت مع أسماء. شعرتُ بالسعادة وأنا أجلس في الصفّ الأمامي الذي سيمنحني فرصة متابعة سيد المفاجآت عن قرب، لعلّي أكتشف خدعةً من خدعه، أو أحظى بفرصة للقائه، أو ألمح وجهه المخفيّ وراء القناع على الأقلّ.

كان ذلك العرض أجمل العروض التي شاهدتها على الإطلاق. ففيه استطاع أن يجعل ورقة تُحَلِّق في كل المسرح، وتحطّ على رؤوس الموجودين، وبعصاه السوداء بثّ لساناً من اللهب تحوَّل ـ في ما بعد ـ إلى طائر أصفر؛ أمّا الخدعة الأصعب، وهي غالباً ما تكون في نهاية العرض، فكانت أن ربطه مساعدوه بسلسلة حديدية، ثمّ قفز في صندوق زجاجيّ مملوء بالماء، وخلّص نفسه في أقلّ من 6 دقائق!

بعد انتهاء العرض، ذهبت أسماء إلى دورة المياه، وأثناء انتظاري لها، لمحتُ ممرّاً يؤدي إلى غرفٍ كُتب على أبوابها: «للموظّفين فقط». خطرت في بالي فكرة أن ألتقي به. لن أفوّت هذه الفرصة؛ لذا طلبتُ من أحد الموظفين أن يدلّني عليه، ألححت عليه حتى استسلم موافقاً، وطلب منّي الانتظار في غرفة الساحر ريثما يخبره!

كانت غرفةً بإضاءةٍ خافتة تقريباً، مليئة بالمرايا والأقنعة والألبسة الغريبة والأردية الملونة، وكان الجدار مملوءاً بالملصقات الإعلانية التي كتب عليها بخطّ عريض مزدوج: «سيد المفاجآت». في الزاوية اليسرى قرب الباب، استقرّت رقعةٌ كبيرة من الشطرنج، صُفّت عليها تماثيل في صور بشرية، وإلى جانبها كانت طاولته الخالية تماماً، إلا من منفضة سجائر وبضع بطاقات مكرّرة، وصندوقٍ مغطّى بقماشٍ أسود

مخـروم للتهويـة، بـدا لـي قفصـاً صغيـراً. شـعرتُ بفضـولٍ لأرى مـا يوجـد فيـه، حاولـتُ أن أقتـرب، لكننـي لـم أسـتطع التبيُّـن؛ فرفعـتُ القمـاش.. وفُجعـتُ لمـا رأيـت... سـلحفاة!

رسالة إلى لص

عزيزي اللصّ:

ستبدو هذه الرسالة أشبه بقصّةٍ لكلّ من يقرؤها عداك. وحدك ستعرف أنها موجّهة لك، وهذه هي الوسيلة الوحيدة التي أُجبِرت على اللجوء إليها للتواصل معك، وقد اخترتُ صحيفة «الغد» بالتحديد؛ لا لشيءٍ؛ سوى أنني رأيتك في المرّة الوحيدة التي قابلتُك فيها تمسكها وتتصفّحها؛ فافترضت أنها صحيفتك المفضلة، وأنّك تتابعها باستمرار. فإذا حدث أنّك حصلت على هذا العدد، ومررت على الصفحة الأدبية، وقرأت هذه القصة / الرسالة، فأرجو أن تعيد لي ما سرقته منّي!

وإذا لم تتعرّف إليّ، فأنا الفتاة صاحبة الثوب الرمادي الذي طُبع عليه رقم «11»، والحقيبة الزهرية، والحذاء الرياضي الأبيض. التقيتَني في المطار، عندما كنتُ أحتسي قهوتي وأقرأ الفصل الأخير من رواية، وجئت أنت وجلست إلى الكرسي

المقابل لي. ضبطتك عدّة مراتٍ متلبّساً بنظراتٍ خاطفة نحوي، وحاولتُ تجاهلك وإخفاء ارتباكة الخجل الطافية على ملامحي، ولكن عينيك بدتا لي ثابتتين محدّقتين، تلوحُ منهما نظرة ثاقبة لامعة، جعلتك أقرب لصورة نسرٍ جسور. أشحتُ بوجهي الذي اعتلته الحرارة، لكنك عدت وحدّقت بي وبغلاف الرواية؛ التي أسندتُها مقلوبة على رجلي؛ فيما كنت أحاولُ ضبط الحجاب على رأسي، ففاجأتني بترديد عنوانها، وأخبرتني بنهاية البطلة فيها، ولما بانت ملامح الاستياء على وجهي، قلت:

ـ ماذا توقّعتِ لنهايتها أن تكون مثلاً؟

ثم جئت مقترباً. كنتَ ذا قامةٍ متوسّطة، ترتدي قميصاً أبيض وبنطالاً بنياً، وتحملُ على كتفك حقيبة صغيرة. وحالما جلست، فاحت منك رائحة عطر الأوركيد المختلطة برائحة التبغ، وابتسمتَ فنضَحَت ملامحك دفئاً آسراً، ثم أخذتَ تناقشني في أمور شتّى: الأدب، الثقافة، الموسيقى، الفنون، الحبّ، الكيمياء، الفلسفة، وحتى القهوة.

القهوة! التي لا أدري إذا كنتَ قد تعمّدتَ سكبها، أم أن الأمر كان حادثاً؛ جعل يدك تندفع نحوي بمرور أحد المارّة جهتك؛ ولسذاجتي المفرطة، أسرعتُ إلى المقهى طالبةً محارمَ ورقيّة لأزيل بقع القهوة عن ثوبي.. وعدتُ.. ولم أجدك!

التفتّ حولي، ظنّاً مني أنني أخطأت مكان الكرسي، ودرتُ حول المكان ثلاث مرّاتٍ؛ ولم أجدك، وهرعتُ إلى حقيبتي أفتّش؛ سألتُ عنك من كان جالساً من نساءٍ ورجال، وموظفين وموظفات، وعمال نظافة، وحتى الأطفال؛ وبدوتُ كالمجنونة أبحثُ عن طيفك، ورحتُ أُعدّد ما يمكن أن يكون قد سُرق مني: الهاتف النقّال.. الجواز.. المفاتيح.. التذكرة.. المحفظة.. الكتاب.. وماذا بعد؟

لا.. لا.. ثمّة شيء آخر. ركضتُ إلى خارج قاعة الانتظار. أخبرتُ الموظّف أنني فقدتُ شيئاً، فأرشدني إلى قسم المفقودات؛ لم أستطع لملمة أفكاري. لقد كنتُ مشوّشة. هل فقدتُه أم سُرق منّي؟ وانتابتني حالةٌ من الهلع والتوتّر؛ لمجرّد التفكير أنّني قد سُرقت!.. يا للخيبة!.. يا للسذاجة!

تذكّرتُ ملامحك، والأخدودين العميقين اللذين يتشكّلان عند زاويتي فمك كلما ضحكت، وخُيّل لي أنك تضحكُ عليّ الآن؛ ولاحت في ذاكرتي يدك التي كلما رفعتها تمسّد لحيتَك، بان عليها ندبٌ عميق. لماذا لم أسألك عن تاريخ هذا الندب؟ لماذا تجاهلتُ ذلك الشعور الغريب فيّ؟

لا أدري كم مرّ من الوقت؛ لكنني ازددت توتراً وأنا أسمع الصوت المتردّد من حولي:

«النداء الأخير.. لرحلة رقم 381.. والمتّجهة إلى مطار هيثرو».

عبرتني صورة أمي التي أخبرتها أنني سأكون هناك بحلول الثامنة مساءً بتوقيت غرينتش!

عندما وصلتُ إلى قسم المفقودات، سألني الموظّف:

ـ تفضلي آنستي، كيف يمكنني أن أخدمك؟

ـ أضعتُ شيئاً.. أضعت.. ثميناً.. أقصد.. قد يكون سُرِق مني!

ـ ماذا؟! ما الذي سُرق منك؟ محفظة؟ وثيقة؟ حقيبة؟ جواز؟ خاتم؟ لباس؟

ـ لا لا.. شيءٌ آخر.. شيءٌ آخر..

ومضيتُ مجدّداً أفتّش بين أشيائي، داخل حقيبتي، في محفظتي، بين صفحات كتابي.. وأردّد: «المفاتيح؟.. موجودة. المحفظة؟.. موجودة. التذكرة؟.. موجودة. الجواز، الهاتف، الكتاب، موجود.. موجود.. موجود!

وعاد الموظّف يسألني:

ـ ماذا فقدتِ إذاً؟

أطرقتُ رأسي؛ فركتُ جبيني لحظةً، ثمّ امتدّت يدي إلى الجهة اليسرى من صدري، الجهة التي شعرتُ بوخزٍ غريب فيها. ثم قلت كما لو أنّني أخاطب نفسي:

ـ لا أدري..

كرة صوف

المشكلة مع صديقتي؛ بدأت في التفاقم منذ مدّة تقارب الشهر، عندما أصبحتْ مأخوذةً برجل!

تقولُ إنّه يحبّها وتحبّه، وإنه أروع رجلٍ يمكن التعرّف إليه. تقضي ساعاتٍ طويلةً في وصف هيئته وملامحه، رغم أني قد حفظتها: وجهٌ متناسق القسمات، بشرةٌ حنطية، عينان بنّيتان، أنفٌ متناسق مع ملامحه رغم كبره.. هذا إلى جانب ابتسامة عذبةٍ تُحيطها لحيةٌ خفيفة وشاربٌ مرتّب بدقّةٍ لا مزيد عليها.

تقول لي إنّه هو من بادر بالتعرّف إليها، وإن الأمر كلّه حدث مصادفة، إلا أنني أعرف في قرارة نفسي أنه لا يمكن لهذه الأشياء أن تحدث مصادفة.. حسناً.. هل يودّ إقناعها أنّه استيقظ صباح يوم من الأيام؛ وقد طبع الحظّ قبلة حارّة على جبهته، ليُراجع المؤسّسة التي تعملُ هي فيها، ويُصادف أنّ معاملته معها؟!.. وفي كلّ مرةٍ، كانت تُنسيه قبلة الحظّ السعيد

ورقةً من أوراقه الرسميّة، ليعود مرّاتٍ ومرّاتٍ يتحدّث معها. هذا الأمر لا يحدثُ حتّى في الأفلام الهندية. أعلمُ أنه رآها مسبقاً، وهي ـ بلا مبالغةٍ ـ ذات جمالٍ لافتٍ للنظر. بشرةٌ بيضاء صافية مشرَّبة بالحمرة. عينان عسليتان واسعتان برموش غزيرة، يعلوهما حاجبان عفويان. وشفتان رقيقتان جذّابتان.

طبعاً! لن يفوت فرصة للتعرّف إليها.. هكذا هم الرجال دائماً!

تُريني صورته، وألعنه في سرّي.. وتتملّكني رغبة شيطانيةٌ متّقدة في خنقه.. «الكاذب اللعين»!

هل هي ساذجةٌ إلى هذا الحدّ؟ أم أنها غبيّة؟ أم هي تتغابى؟ ألا يمكنها أن تلاحظ كذبه؟ أو هل يعقل أنها لم ترَه من قبل؟ ستجعلني هذه الفتاة أصدّق أن الجمال والذكاء نقيضان لا يجتمعان أبداً، ثم إنّي والله بدأت أضجرُ وأتوتّر؛ كلما تحدثت عنه بعيونٍ حالمةٍ وروحٍ محلّقة.

تتّهمني أني مقصّرة في حقّها، وواجبي كصديقة أن أفرح لفرحها وأحزن لحزنها. لابدّ أنها لاحظت سؤالي المتوجّس المتكرّر عدّة مرات:

ـ هل تقدم لخطبتك؟

ـ كلا

ـ إذاً وعدكِ بالزواج؟!

ـ كلا.. ليس بعد.

وأغرقُ في صمتي الطويل، وأنا أراقبُ قطّتي وهي تقفزُ فوق كرةٍ من الصوف، وتسقط على وجهها عدّة مراتٍ، فتتدحرج الكرة، وينفلتُ منها خيطٌ طويل تحاول تتبّعه، ثم تغرز مخالبها في الكرة، لكنّ كومة من الخيوط تعلق بها. تدور حول نفسها. تنطرح على الأرض. تقف، ثم تموء وهي تحاول التخلّص من خيوطٍ حوّطت قوائمها، والتفّت حول عنقها. تحرّك ذيلها للأعلى والأسفل محاولةً الانقضاض بأنيابها؛ ولا تستطيع. ظلّت تحاول، حتى سقطت متعثّرة عاجزة.. قمت من مكاني أساعدها لفكّ تشابك الخيوط وعُقدها، وأنا أفكّرُ بمشكلتي التي بدأت تتفاقم.. مشكلتي مع صديقتي..

كيف سأخبرها أنّ هذا الذي تحبّه.. زوجي!

حمّام آدم

قبل البدء: كُتِبَت هذه القصة نقلاً عن مقابلةٍ سُجّلت ضمن مشروع تخرّج لصديقة لي في كلية علوم الاتصال والإعلام؛ التابعة لجامعة زايد في «دبي»، تحت عنوان: «موقف في حياتي».

بدأ مقطع الفيديو على لسان (بولا) تقول بارتباك:

ـ أوه! هل أبدأ؟.. حسناً.. اسمي بولا، وأنا خادمة.. اممم.. هذه ليست البداية المناسبة.. هل يمكن أن نعيد التسجيل رجاءً؟

ثمّ جاء صوت صديقتي:

ـ لا بأس، كوني على طبيعتك.. هذه بروفا.. يمكنكِ أن تعيدي قدر ما تشائين.

وأطرقَت تفكّر، ثمّ بدأت من جديد:

«اسمي بولا، 46 عاماً، من أوغندا، جئتُ إلى دبي حديثاً بعد عملي كخادمة في عدد من البلدان. عملي، جعلني أمرّ بمسلمين ومسيحيين ويهود وبوذيين، وحتى بالسيخ والملحدين، وخالطتُ

أطبّاء ومهندسين ومتعلّمين وغير متعلّمين، وأشخاصاً من عبدة الشيطان، وآخرين ممّن يربّون الأفاعي والحشرات، وراقصات باليه، وكهنة ونُسّاكاً، ومدمني أوشام، وبائعي تُحف، ومُقتني لوحات. لم أعمل لديهم جميعاً بالطبع، ولكنني تعرفت في السنوات الماضية إلى الكثير من الشخصيات والطبائع والأهواء والأعراق والعقائد والأديان، وصرتُ مع الوقت أقبلها وأتقبّلها؛ مهما بلغت من غرابة أو تميز.

ربما يتقدم بي العُمر وأنسى تلك الشخصيات، والطرقات التي أدّت إليها، وأرقام المنازل والفلل والشقق التي عملتُ بها، إلا منزلاً واحداً سيظلّ عالقاً في ذهني.. نعم.. هذا مؤكّد.. هو منزل السيّد (صموئيل حداد).

كان السيّد يعيش وحيداً، هذا ما أخبرني به مسؤول مكتب استقدام الخدم في البداية، قبل أن أتعرّف إلى ابنه (آدم). كان منزلاً مكوّناً من طابقين. كان الطابق السفلي يحتوي على غرفة خادمة، أي: غرفتي.. ومطبخ وغرفة الكوي والغسيل، أما الطابق العلوي فكان مخصّصاً للسيّد و(آدم)، وهو مكوَّن من غرفة جلوسٍ فسيحة ذات ألوان هادئة كالأبيض والسكّري، وأثاث خشبي صُفّت عليه بعض الخزفيات، بالإضافة إلى نوافذ طولية تَسمح للواقف أمامها أن يرى ما يُرى على مدّ البصر من بيوتٍ وفلل وسوبرماركت، ومتجر صغير لبيع الحلوى والهدايا.

على الجانب الآخر، كان الممرّ الذي يؤدّي للغرف، عُلّقت فيه صورة السيد مُحتضناً (آدم)، الذي كان بدوره يحتضن دُميته التي كانت في شكل دُبّ بُنّي ذي عيون عبارة عن أزرار قميص، وأنفٍ قُطني أحمر مدبّب.

تلقّيتُ تعليمات تدبير المنزل أوّل مرة في المعمل، حيث أدركتُ هناك طبيعة مهنة السيّد. طرقتُ الباب فسمح لي بالدخول وهو منهمكٌ في تحسّس كاتالوج الأقمشة. وقفتُ أمامه، فرفع رأسه وعدّل نظارته السميكة، ثم قال:

ـ أهلاً بك في المنزل، حسناً.. سيتعيّن عليك أن تهتمّي بإعداد الوجبات الثلاث اليومية، الغسيل، الكوي، التنظيف.. هذا إلى جانب الاهتمام بآدم ونظافته وطعامه ودُميته. هو في السابعة من العمر، لن يضايقك كثيراً، لكن ضعيه في السرير عند الثامنة.. السهر ممنوع!

خضّ العلبة البلاستيكية أمامه يميناً ويساراً كأنّه ينخل الدقيق، فأصدرت محتوياتها صوتاً يُشبه ارتطام مكعّبات الثلج في عبوةِ ماءٍ مُغلقة. فتحها، وعاين مجموعة الأزرار الملوّنة فيها.. تخيّر خمس قطع متشابهة.. جرّبها على ثوب الدمية شبه المكتملة، ثمّ مدّ خيطاً من بكرةٍ أمامه ولعق طرفه، وأدخله في خرم الإبرة وهو يضيّق عينيه، وأكمل:

ـ أرجو أن تنتبهي لما سأقوله، التلصّص والفضول والأسئلة

الزائـدة ممنوعـة. إدخـال آدم إلـى هـذه الغرفـة ممنـوع، الحديـث مـع الخـدم في البيـوت المجـاورة أيضـاً ممنـوع.

قلتُ:

ـ حاضر سيّدي..

نظـر إلـيّ مـن فـوق نظارتـه بعـد أن نجـح فـي خياطـة أول زرّ علـى ثـوب الدميـة وقـال:

ـ اسمكِ باولا صحيح؟

ـ بولا سيّدي.

ـ حسناً بولا.. يُمكنكِ مباشرة العمل من الآن.

قضيـتُ اليـوم فـي تنظيـف الأسـطح والأرضيّـات، ثـمّ إعـداد وجبـة العشـاء. وحالمـا انتهيـتُ مـن صفّ الصحـون علـى الطاولة، انتبهـتُ إلـى السيّد الـذي مـدّ كرسيّه وجلـس ومعـه (آدم).

ـ بـولا.. تعرّفـي إلـى آدم.. آدم.. ألـقِ التحيّـة علـى صديقتـك الجديـدة.. هيّـا لا تخجـل!

لكـنّ (آدم)، ظـلّ مطأطـئ الـرأس محدّقـاً فـي المائـدة أمامـه. جالـت عينـاي بينهمـا، فحـاول السـيد حـثّ (آدم) علـى التحيّـة؛ وهـو يدفـع مرفقـه برفـقٍ إلـيّ:

ـ هيّا.. صافحها.. لا تخجل!

وبتردّد مددتُ أنا الأخرى يدي لأصافحه، فكانت مصافحة فاترة، لم ألمس فيها سوى أطراف أناملـه، لكنني سمعتُ بصوت خفيض:

ـ مرحباً!

هذا هو (آدم)، ابن السيد (صموئيل). طفلٌ يبدو أصغر من عمره الحقيقيّ، هزيل البنية، غضّ الأطراف، بشعرٍ أسود كثّ، أنفٍ دقيق، وعينين منطفئتين تقريباً من أيّ حماسةٍ قد تراها في عيني طفل في عمر السابعة.

ـ هل هو مريض؟

حدّثت نفسي وأنا أتأمله..

فقاطعني:

ـ هلّا أطعمتِه يا بولا؟

ـ هو مريضٌ إذاً..

أكملتُ في سرّي..

وبدأت أُطعمُ (آدم). كان فمه يتّسخ باستمرار، وفي كلّ مرّةٍ كان ينظرُ إليّ أبوه بحدّةٍ؛ مشيراً إلى عُلبة المناديل، أن نظّفي فمه. وسوى صوت تصادم الملاعق بالصحون وصوت شُرب العصير، لم يصدر أيّ صوت.. ولم ينطقا بشيء.

كان من ضمن مهامي خلال الأسبوع الأول، أن آخذ (آدم) إلى متجر الحلوى والهدايا في الشارع المقابل، وأختار له نوعاً خاصّاً من الحلويات طويلة الأمد، وأشتري له لعبة وفراشاً جديداً. لم يكن يعترض على شيء، أو يسأل.. أو حتى يختار.. وكان الأطفال في المتجر يُداعبونه، يُصافحونه، أو يسألونني عنه. شعرتُ بالضيق لمجرّد الوقوف بمحاذاة (آدم)، فأسرعت لشراء ما طُلِبَ مني وخرجت.

في أحد الأيّام، طلب منّي السيّد (صموئيل)؛ أن أرتّب غرفة (آدم)، وألعابه المتناثرة، وأشغّل له مسلسلاً كرتونياً للأطفال، وهكذا فعلت. أمضيتُ اليوم أغلبه مع (آدم)، وغلبني النعاس.. فنمت. لا أدري كم نمت، لكن السيّد دخل الغرفة غاضباً، وعنّفني على إهمالي، أن تركتُ ابنه نائماً على الأرض.. اعتذرتُ منه، لكنه ظلّ حانقاً محمرّ الوجه، متعرّق الجبين.

في المساء، عند السابعة والنصف تقريباً، كان عليّ أن أحمّم (آدم) ثمّ أضعه في الفراش، لم أعرف كيف أحمّمه، كانت تلك تجربتي الأولى، لكنني حاولت، وحمّمتُه ثمّ جفّفت شعره وجسده، ووضعته في فراشه لينام.

لكنّ السيّد بدا في الصباح أشبه بإعصارٍ هائجٍ؛ وهو يطرقُ على الطاولة بقبضته ويقول:

ـ ماذا فعلتِ له! ماذا فعلتِ بابني؟ كيف حمّمته أمس؟

ـ سيدي.. أنا.. فعلتُ ما طلبته مني.. حمّمـ...

ـ حمّمتـه! آهـا.. آهـا.. برافـو.. أنـتِ مثـل مـن سـبقكِ.. لا فـرق أبـداً.

وأكمل مشيراً بسبّابته:

ـ إيّاكِ أن تتحرّكي من مكانك!

ثـمّ دخـل غرفـة ابنـه، وعـاد معـه. كان شـعرُ (آدم) كثّـاً أكثـر مـن المعتـاد، وتبـدو آثـار أصبـاغٍ ملوّنـة علـى طـرف وجهـه، فقـال السـيد بعيـونٍ دامعـة وصـوتٍ مرتجـف:

ـ أهكذا؟ هكذا حمّمته؟!

حدّقـت فـي عينـي (آدم) المتدلّيتيـن مـن قعرهمـا، وجسـده الملفـوف برقـعٍ وخيـوطٍ ملوّنـة، وتسـاءلت بصـوتٍ مسـموع:

ـ لكـن.. كيـف لـي أن.. كيـف لـي أن أعـرف كيـف أحمّـم دميـة؟

رفـع السـيد رأسـه وقـال بعينيـن بدتـا خاليتيـن تمامـاً مـن أي شـعورٍ:

ـ اجمعي أغراضكِ.. أنتِ مطرودة!

حكّة

كان يُعاني من حساسيةٍ شديدةٍ تجاه الألوان الزيتية والغبار والروائح النفّاذة، تجعلُ أنفه يسيل، وجسده يحمرّ نتيجة عملية الهرش المتواصلة، وفي مرّات كثيرة كان يجرحُ جلده بأظفاره الشبيهة بمبشرة تفتق الحبوب الناتئة؛ فتفيضُ قيحاً ودماً؛ لكنّ آلامه تلك.. كلها كانت تتبدّد أمام فرحته المتمثّلة في بيع لوحة!

ثمّ إنّ أمر الحساسية هيّن، فكريمات الترطيب ومضادات «الهستامين»؛ كانت كافية لجعله يعود إلى حالته الطبيعية خلال 24 ساعة على الأكثر، وإن خلّفت الحساسية بعض الندبات والقروح.

ذات يوم، خرج من مرسمه بعد أن مسح أرضيّته، وفرز الألوان، وغلّف بضع لوحات لإرسالها للمشاركة في بينالي الشارقة الدولي للفنون، ثمّ اتّجه إلى الفناء الخلفي لمنزله، ليدخّن سيجارته منفّساً عن توتّره؛ لكنه بعد لحظاتٍ، انتبه

إلى فراشة «مونارش» كانت ترفّ حول برعم كزبرةٍ نام. شدّته رغبةٌ في الإمساك بها؛ فرمى سيجارته أرضاً بعد أن نفث نفثةً أخيرة. داسها. ثمّ دنا بهدوء حابساً أنفاسه، وما إن حطّت الفراشة على البرعم؛ حتّى قبض على جناحيها، لكنّها سرعان ما أفلتت منه عندما عطس بسبب الرائحة المنبعثة من الكزبرة.

وفيما كان يحاول إخراج منديل من جيب بنطاله لمسح أنفه، اقتربت الفراشة منه مجدّداً، فأحسّ برفّة جناحيها عدة مرات ناحية يده اليمنى، ولكنه لم يفلح هذه المرة أيضاً في الإمساك بها؛ فطارت محلّقة؛ تاركةً في نفسه شعوراً بالحسرة على ضياعها منه.

عاد إلى مرسمه. غسل يديه، ثمّ ذهب إلى غرفة نومه ليستلقي، لكنّه أحسّ بحكّةٍ شديدةٍ ناحية إبهامه الأيمن، ففتح أحد الأدراج وتناول حبّة من شريط مضادّات «الهستامين»، ونام محاولاً تجاهل الحكّة التي أصابته؛ غير أنّ مدّة النوم الفعلية التي قضاها لن تتجاوز الساعتين، إذا تمّ استثناء حالات الفزع المتكرّرة؛ نتيجة الهلوسات والخيالات والأحلام التي راودته.

قرابة السادسة مساءً استيقظ فزعاً لاهثاً، يحسّ بجفافٍ حادّ في حلقه، وحرارةٍ شديدة في جسده؛ الذي كان ينزّ عرقاً غزيراً. قلّب كفّه على رقبته وجبهته، ثمّ خلع قميصه المبتلّ الملتصق بصدره وظهره، لكن شعور الاختناق ظلّ ملازماً له، فأسرع

إلى النافذة يفتحها، وما كاد يزيح الستارة حتى انتبه إلى إبهامه. بدا محمرّاً كقطعة لحمٍ نيء، هذا إلى جانب نتوءات فطرية صغيرة كانت أقرب في شكلها إلى الفقاعات الملتصقة.

ـ ستزول في ما بعد.

حدّث نفسه وهو يحكّها.

حاول أن يتماسك ويُغالب تعبه، فارتدى ثيابه ليخرج. تذكّر أن صديقه نصحه مرةً بزيارة «واجهة المجاز المائية» في الشارقة، فاتّجه إلى هناك. ركن سيارته، ثمّ مشى، لكنه سرعان ما أحس بالإنهاك، فتوقف قرب عمود إنارة، وأشعل سيجارته، لينتبه إلى أنّ ثمّة امرأة تقف بمحاذاته تتأمّله. كانت في حدود الثلاثين، بشعر أشقر ممّوج طويل، ترتدي قميصاً أخضر كلون عينيها، ذا ياقة مرتفعة، وتنورة ملوّنة. بدت ملامحها مألوفة له، فسألها:

ـ عفواً.. هل التقينا من قبل؟!

قهقهت، فبانت أسنانها كحبّاتٍ من اللؤلؤ الناصع، ثمّ قالت شيئاً مبهماً لم يفهمه، فصوتُ ضجيج الشارع وصراخ الأطفال من حولهما بدّد كلماتها. وضع أصابعه وراء أذنه مقترباً منها، مشيراً إلى أنّه لم يسمع، لكنّها لم تجبه وغادرت. ردّد بصوتٍ لم يسمعه أحدٌ سواه:

ـ والله رأيتُها.. لكن أين؟!

وكما استحوذت الحمّى على جسده، فإنّ الحيرة باتت تلوك عقله وقلبه!

أكمل المشي حتى قادته رجلاه إلى طريق طويل، اصطفّت على جانبيه أعمدة الإنارة، وورود «الونكا» البيضاء؛ وكلما مشى انبسطت من يمينه وشماله المحلات والمطاعم والمقاهي التي كانت تعبق برائحة التوابل والخبز والقهوة. ما الذي يشعرُني أني مررتُ من هذا المكان من قبل؟.. أتراني شاهدته في إعلانٍ من قبل؟.. كلا.. إنّه مكانٌ جديد عليّ، وإنما تلك مجرد إيحاءات.

تشاغل بهاتفه يراجع جدوله هذا الأسبوعي:

ـ البينالي.

ـ لوحة الزبون. لا بدّ أن ينهيها ليقبض المال، ويدفع ما بقي من قسط إيجار المنزل.

ـ الردّ على اسئلة زبائنٍ آخرين في موقعه الشخصي.

ـ مقالة الشهر.

ثمّ فتح صفحته على «تويتر»، وكتب:

«دائماً في الوقت الخطأ! الحمى ـ اللعينة

وحالما ضغط على «غرّد»؛ رفع رأسه فانتبه إلى المخبز المقابل له. أحس أنّ منظر الخباز وهو يُدخل الخبز إلى التنّور منظرٌ مألوف جداً..

ما الذي يحدث؟ لماذا يبدو كل شيء مألوفاً هنا؟

طوى تساؤلاته في الحال؛ عندما سمع أنيناً في زاويةٍ مظلمة، فمال برأسه ليكتشف أنه طفلٌ يئنّ وينشج باكياً. ناداه ليسأله عن السبب، وكهبّة ريحٍ مفاجئة جرى الطفل واختفى، فكأنه ذاب في الظلام.

رمى سيجارته، طحنها بطرف نعله، وحكّ إبهامه. كانت الحساسية تزداد، وحرارته بدأت ترتفع أكثر، فقرّر أن يعود إلى المنزل، ولكنه عاد يتساءل عمّا عساه يجعل هذا المنظر مألوفاً أيضاً؟ وجه الطفل الممسوح بالكآبة.. أين رأيته من قبل؟

عاد إلى المنزل. كان لا بد أن ينتهي من لوحة الزبون غير المكتملة، فاتّجه إلى مرسمه، لكنّه أحس أنّ رأسه ثقيل جدّاً، فألقى بجسده على الأريكة واستغرق في النوم. استيقظ عدّة مرّات مختنقاً، ولمّا بلغت الحمّى مبلغها منه، بدأ يُهلوس، ويرى أمامه خيالاتٍ وأطيافاً غريبة، وبين اليقظة والنوم؛ انتبه إلى الإصبع الجديد النامي قرب إبهامه. لم يكن ذلك الإصبع سوى مجموعة النتوءات التي بدأت تتزايد في صورة مخيفة مع ازدياد الحرارة.. هل أحلم؟!

حاول أن يحرّك يديه. يبسطها، ويجعلها في شكل قبضة، لكن الأمر زاد سوءاً؛ عندما انفتقت كل النتوءات وسالت على ثيابه وأطراف أريكته. اتّجه إلى غرفة المطبخ متعرّقاً لاهثاً،

وأخـذ إنـاءً عريضـاً مـلأه بمكعّبـات الثلـج والمـاء، ثـم انحنـى فـوق المغسـلة ليسـكب كل مـا فـي الإنـاء علـى رأسـه، فانتفـض فـي مكانـه يشـهقُ مـن البـرودة. مـرّ بكفّيـه علـى وجهـه ورأسـه، ثـم عـاد إلـى المرسـم، وسـحب رداءً كان يغطـي إحـدى لوحاتـه، ليلفّ بـه نفسـه، لكـن القشـعريرة سـرت فـي أوصالـه، وانخطـف لونـه، ثـم تعثّـر بالـرداء وهـو يتراجـع إلـى الخلـف. اللوحـة.. المـرأة.. لوحتـه.. بالشـعر الممـوّج الأشـقر.. الياقـة المرتفعـة.. التنّـورة الملوّنـة.. هـي نفسـها!

بقـي مـدّة علـى الأرض ينظـرُ إليهـا مذعـوراً فاغـراً فمـه، ثم راح يحـاول نـزع الأغلفـة عـن اللوحـات التـي كانـت معـدّة للمشـاركة فـي «البينالـي»، ليُـدرك أن كلّ مـا رآه اليـوم فـي الطريـق، وكان مألوفـاً، ليـس سـوى لوحاتـه.. لوحـة المـرأة الشـقراء. لوحـة ورود الونـكا التـي اشـتدّ بياضهـا تحـت أعمـدة الإنـارة. لوحـة الخبّـاز والتنّـور. لوحـة الطفـل بالملامـح الكئيبـة والعيـون الدامعـة، المغطّـى بهالـةٍ مـن سـواد.

لكـن.. متـى رأى كلّ هـذا أصـلاً ليرسـمه؛ وهـي زيارتـه الأولـى للواجهـة المائيّـة؟! بـل إنـه اسـتخدم تطبيـق «خرائـط غوغـل» ليصـل!.. وهـو متأكّـدٌ أيضـاً، ولا مجـال للشـكّ، أن كلّ مـا يرسـمه بـلا اسـتثناء مسـتمدٌّ مـن الخيـال. صحيـحٌ أنّـه مصـاب بالحمّـى، لكنـه لـم يفقـد ذاكرتـه. يعـرف أنّـه لـم يعتمـد علـى أيّ صـورة أو

نموذج في لوحاته.. حتى ملامح المرأة، لون عينيها، انعكاس الإضاءة على وجهها، قميصها الأخضر، تنّورتها الملوّنة.. هل يُعقل أن تكون كلّ تلك التفاصيل محض مصادفة؟ هل هي هلوسات أو تهيّؤات؟

دقّق في اللوحات. كلها رُسمت في مناسبات مختلفة. ليس هناك ما يربط بينها. لا شيء.. لا شيء سوى... أنه غلّفها اليوم، مساء اليوم.. أوه.. اللوحات.. الحكّة.. الكزبرة.. الفراشة.. إبهامه الأيمن.. هل يُعقَل أنّ ثمّة علاقة؟!

وفيما كان غارقاً في حيرته وتساؤلاته، خطر في باله أن يرسم قطّة نائمة، وهكذا فعل. أمضى الليلة كلّها في رسمها.. ثمّ غطى اللوحة.. وغادر المرسم.

* * *

في اليوم التالي، كانت الحمّى والحكّة قد خفّتا عنه، فقرر أن يخرج إلى ذاك الطريق الذي مرّ به ليلة البارحة؛ لكنه ما إن فتح الباب؛ حتى تعثّر بِكُرةٍ من الشعر. لم تكن تلك إلا قطة.. نائمة!

ـ لا بد أنها مصادفة.. مصادفة..

ردد بصوتٍ مسموع.

ـ لكن.. ماذا لو لم تكن مصادفة؟

سأل نفسه.

وتذكـر.. الشـقراء.. ورود الونـكا.. منظـر الخبّـاز.. الطفـل.. والآن.. القطّـة!

جرى نحو مرسمه حتى كاد ينكفئ على وجهه. نزع الغطاء عن لوحة القطّة التي رسمها البارحة. ويا للدهشة! كانت هي؛ بنفس اللون، بنفس الحجم، بنفس الخطّ الأسود الفاصل في مفرق الرأس. حدّق فيها، ثمّ تناول فرشاة كبيرة، غمسها في الماء، ثمّ في اللون الأحمر، ومشى بالفرشاة على جسدها محدثاً جرحاً عميقاً، وأعاد الفرشاة في تردّد، وما إن همّ بتغطيتها؛ حتى سمع صوت مكابح سيّارة في الشارع. هرع إلى باب منزله، وتراخت ملامح وجهه كلها في ذهول؛ وهو يسمع جاره يقول:

ـ الحمد لله.. لا شيء.. مجرّد قطّة!

ظلّ واقفاً في مكانه يرتجف متأمّلاً يديه الملطّختين باللون الأحمر، ثمّ تمتم:

ـ مجرّد قطّة.. مجرّد قطّة..

القلم (راء)

كانت الإضاءة الصفراء الخافتة، تضفي جوّاً من الدفء والرقّة داخل الخزانة الزجاجيّة. خزانة ضمّت وسائد سوداء مخمليّة، استلقت فوقها أقلام، هي الثروة التي أمضى سنواتٍ يجمعها. كلّ قلم كان موشوماً بحرف، وله قصّة ومناسبة، يحفظها كما يحفظ اسمه!

القلم (حاء).. قلمٌ من جلد التمساح، خفيفُ الوزن، بل يكاد يكون بلا وزنٍ تقريباً، ولسببٍ ما كانت تنبعثُ منه رائحة غريبة كلّما استعمله. لا يعرفُ كيف يسمّيها. قد تكونُ رائحة عشبٍ مبلول. الأغلب أنّها رائحة عشب مبلول، وإلا ما سرّ كلّ هذه القطعان من الخراف، وأصوات النايات، والظلال المتراقصة التي يجدُ نفسه مرغماً على الكتابة عنها كلما أمسك به؟

لحبر هذا القلم ميزةٌ نادرة، فهو بلا لونٍ تقريباً. حبرٌ شفّاف. لا يظهر إلا عند سقوط أشعّة الشمس عليه. أو عند تعريضه لحرارة الشموع!

قالت له صديقته مرّة:

ـ إنّه يشبهك. أنت أيضاً لا تتكلّم إلا بتأثير حرارةٍ ما تتسلّط عليك؛ أظنّ أنك من النوع الذي يثرثر كثيراً عندما يكون محموماً.

القلم (سين)، قلمٌ رشيقٌ جدّاً. لسانٌ حادّ كالإبرة، وغطاءٌ كالغمد. كان يحتاج إلى ضمّ الإبهام والسبّابة والوسطى معاً كي يستطيع التحكّم به. وعندما يمشي على الورق؛ فإن خطوطه تأتي رصينةً حادّة. من الضروري عدم الضغط عليه بقوّة؛ كي لا يسيل الحبر بقعاً حمراء على الورق. فكّر أن يهديه لصديقته في عيد ميلادها، لكنّه تراجع عن تلك الفكرة؛ عندما تشكّلت في مخيّلته صورة القلم وحيداً وسط أكوام من علب الكبريت التي تهوى هي جمعها. هوايتها الغريبة التي كلّما سألها عنها؛ أجابته وهي تضحك:

ـ قد تنفع في إشعال حريقٍ ما!

كانت تستغربُ هوسه الشديد في اقتناء الأقلام. تُدرك أنّه كاتب، لكن ألا يكفيه قلمٌ واحد؟!

لا يزال يقشعرّ بدنها كلّما تذكّرت ذلك الموقف الذي أخبرها به، عندما قابل ذلك الرجل في (بومباي). وصفه لها بأنّه كان مجرّد كومة عظام مكسوّة بالجلد، مع شعر كثيف طويل أشعث. كان يبيع الكتب ويقرأ الطالع والكفّ. طلب

منه أن يقرأ له طالعه، لكنّ الهنديّ هزّ رأسه يميناً ويساراً على الطريقة الهنديّة المعروفة، فأصدرت كلّ الحلقات في أنفه وأذنيه رنيناً صاخباً. لم يفهم ماذا يقصد بالضبط، فأشار إليه الهنديّ مرّةً، وإلى قلم معيّن أمامه مرّةً أخرى. خُيّل له أنّه يقول:

ـ لا تحتاج إلى قراءة طالع.. اشترِ هذا القلم.. يكفيك هذا.

قلمان في هيكل واحد. كالتوأم. يتعاقبان في الظهور بإدارة رأس الهيكل يميناً وشمالاً، ليكتب بالأسود مرّة، وبالأبيض مرّة أخرى. حبر أبيض. لا يظهر إلا على الأوراق السوداء! سمّاه في ما بعد القلم (تاء). في الحقيقة هي التي أطلقت عليه هذا الاسم. وعندما سألها عن سبب اختيارها للحرف تاء قالت:

ـ أشعر أنّه قلم مميّز، ويستحق حرفاً مميّزاً.

لا يعرفُ حتى اليوم ماذا كانت تقصد.

ـ ما المميّز في التاء؟

سأل نفسه، ثم قال:

ـ لا أظنها تقصد اسمي (تامر).. لا شكّ أنّها تعني شيئاً آخر.

القلـم (هـاء). قلـم مضحـك؛ هـو أقـرب إلـى الدميـة منـه إلـى القلـم. لـه شـكل رجـل إطفـاء. قبّعـة سـوداء، ومعطـف، وخرطـوم مياه. اشتراه لأنه تذكّر كلامها عن الحرائق. قال لها:

ـ ستكون معركة بين علب كبريتكِ وأقلامي.

القلـم (جيـم). قلـمٌ عريـضٌ. ثقيـل الـوزن. يبـدو رأسـه كـرأس نسـر ثُقبـت عينـاه بحبّتـي كريسـتال حمراويـن. قـال لهـا:

ـ أخـاف هـذا القلـم. كلّمـا أمسـكتُ بـه شـعرت بدمـي يغلـي. ثـم يـزداد معـدّل ضربـات قلبـي. حالـة قريبـة ممّـا يتملّـك الإنسـان عندمـا يـرى امـرأة خارقـة الجمـال.

ضحكت وهي تقول له:

ـ هذا القلم بالذات عليك أن تتخلّص منه.

ـ لا.. هـذا القلـم بالـذات أحتاجـه. هنالـك الكثيـر الـذي أحلـم بكتابتـه به.

ومـن بيـن كلّ تلـك الأقـلام الغريبـة، كان يرقـد القلـم (عيـن)، يعلـوه جسـد راقصـة «باليـه»، لهـا مفتـاحٌ يـدويّ فـي ظهرهـا، يُصـدِرُ لحنـاً يثيـر الشـجن كلّمـا أداره. سـالت دموعهـا فـي المـرّة الأولـى التـي سـمعته، فقـال:

ـ كيف لقلمٍ أن يُبكيكِ يا ريم؟! يا لقلوب النساء!

مسحت دموعها، وأشاحت بوجهها؛ ثم قالت:

ـ إنّه اللحن.

وقفَت أمام خزانته مرّةً. كلّ الأقلام ثمينة، غريبة، مُدهشة، تثير في النفس رغبةً شديدةً للإمساك بها، وتحسّسها، وشمّ رائحتها، وتجربة حبرها. خطر لها أن تعدّ الأقلام مرّةً.. كم قلماً يملك؟ 1، 2، 3، 4، 5... عدّتها مرّةً فمرّة، لكنها في كل مرةٍ كانت تقف عند الرقم 27. تساءلت:

ـ أين القلم 28؟

فعادت تهجّئ الحروف: أ، ب، ت، ث، ج، ح، خ، د، ذ، ز، س... مهلاً!.. أين القلم (راء)؟ التفتت إليه تسأله:

ـ أين (راء)؟

أشار إلى الجهة اليسرى من معطفه، حيث كان يرقد القلم (راء) بسلامٍ فيه.

خيبة قلب

ككلّ الأشياء التي تحدث حينما لا نكون مستعدّين لها.. كان اللقاء!

كانت قطرات المطر قد بلّلت جزءاً من كتفيه وقبّعته ذات المقدّمة الممتدّة، ولهذا حثّ خطاه منكّس الرأس تجاه المقهى الذي اعتاد الجلوس فيه. طلب قهوته. دفع الحساب. وحالما التفت؛ انتبه إليها!

كانت جالسةً منهمكة في البحث عن شيءٍ ما في جيب حقيبتها؛ فيما وقف هو يتأمّلها. كما هي، لم تتغيّر. ما زالت هالة السحر تلفّها. الهالة التي تجعله مأخوذاً بمراقبة إيماءاتها. حركاتها. وهي تعقدُ حاجبيها. وهي تزيح خصلة شعرها عن وجهها الناعم الغضّ. وهي تلفّ غطاء رأسها، ثمّ تطوّح بالجزء المنسدل خلف عنقها بخفّةٍ ورقّة؛ لكنّها عندما رفعت رأسها، بدا كأنّه قد تنبّه من حلم!

وقفَت هي من مكانها بشكلٍ لا إراديّ، فسقط هاتفها

مـن حجرهـا. ارتبـك، لكنّـه تقـدّم نحوهـا ببـطءٍ، ورفـع هاتفهـا عـن الأرض، ومـدّه لهـا. بقـي صامتـاً يفحـص ملامحهـا بعينيـن كادتـا تلتهمـان وجههـا مـن شـدّة الحنيـن؛ لطالمـا عشـق عينيهـا البندقيتيـن ذواتـي النظـرات الشـقيّة الطفوليّـة، وابتسـامتها الرقيقـة الدافئـة. كان لجمالهـا سـحر فاتـن. غيـر أنّهـا الآن، وفـي لحظـات، تجمّعـت الدمـوع فـي عينيهـا، وبـدأت أنفاسـها تتقطّـع، إذ غـدا قلبهـا فـي حالـة اهتيـاج. لـم تتمالـك نفسـها، فغطّـت وجههـا بكفّيهـا، وألقـت بجسـدها علـى الكرسـي لتنفجـر بنشـيجٍ حـارّ!

جلـس أمامهـا وأخـذ يحـدّق فـي البخـار المتصاعـد مـن كـوب القهـوة أمامـه؛ وهـو يـذوب فـي الهـواء. لـم يكـن يعلـم كيـف يبـدأ.. أو بمـاذا يـردّ حينمـا سـألته:

ـ أين كنت كلّ هذه المدّة؟!

وكأنّها بهذا السؤال؛ أعادت لذاكرته كلّ ما كان!

أيـن كنـت؟.. سـؤالٌ صعـب. لمـاذا لـم تسـألني مثـلاً: كيـف حالـك؟.. إذاً؛ لـكان الجـواب علـى هـذا السـؤال أسـهل بكثيـر. سـأردّ. سـيكون الجـواب حاضـراً فـي ذهنـي.. سـأقول: بخيـر.. أو: صـرتُ الآن بخيـر عندمـا رأيتـكِ.. سـأخبرها أن الشـوق إليهـا قـد تمكّـن منّـي. وقـد أهمـس لهـا بأنّـي سـأضحّي بيومـي؛ بـل بعمـري وبـأيّ شـيء؛ مقابـل هـذه اللحظـة التـي أتأمّلهـا فيهـا. قـد أخبرهـا بحجـم حبّـي، مـردّداً لهـا عشـر مـراتٍ متتاليـة: أحبّـكِ، أحبّـكِ،

أحبّـكِ.. هـذه هـي حالـي دائمـاً وأبـداً.. لكـن: أيـن كنـت؟.. سـؤالٌ أصعـب ممّـا تتخيّـل.. أيـن كنـت؟.. يعنـي ثـلاث سـنواتٍ مـن الغيـاب الـذي لا أسـتطيع تبريـره.. وقـد يجـرّ السـؤال سـؤالاً آخـر أصعـب، مثـل: مـاذا حـدث؟.. لا بـد أنّهـا ستسـأل هـذا السـؤال.. وقـد تلومنـي.

ظـلّ صامتـاً، فيمـا كانـت هـي تحـدّق فيـه؛ والدمـوع تنسـاب علـى خدّيهـا، ثـمّ سـألته بشـفتين مرتعشـتين:

ـ ألن تجيبني؟

ـ لا تبكِ.. أرجوكِ.. كان الأمر خارجاً عن إرادتي.

وبـدَت ملامحـه مصطبغـةً بيـأسٍ شـديدٍ؛ وهـو يتذكّـر تلـك الليلـة، عندمـا كانـت عيناهـا ملتمعتيـن؛ وهـي تقـول لـه بفـرح جعـل غمّازتيهـا تبـدوان أكثـر عُمقـاً:

ـ اشتقتُ لك.. بحجم.. هممم.. بحجم السماء!

لكنّـه لـم يـردّ تلـك المـرة، ولـم يعلّـق كعادتـه علـى شـوقها، ولـم يصفـه بكلمـة: شـوق بخيـل.. ولـم يفتـأ طيلـة الوقـت ينظـر إلـى الخـارج. يُرسـلُ بصـره علـى سـجيّته عبـر النافـذة.. بـدت ملامحـه آنـذاك أكثـر صرامـة.. فسـألته:

ـ ما بك؟

ـ لا شيء.

ثـمّ فاجأهـا بضـرورة الابتعـاد، وأنّـه يفضّـل أن تنسـاه. لـم يقـدّم لهـا أيّ مبرّرات أو أسـباب. لـم يشـرح لمـاذا أو كيـف. دفـع الحسـاب وغـادر.. ليتركهـا تلـك الليلـة فـي أقسـى حالـةٍ يُمكـن لمحـبٍّ أن يمـرّ بهـا!

اليـوم، يشـعر أنّـه لا جـدوى مـن الـرد علـى: أيـن كنـت؟.. كيـف سـيخبرها أنـه لـم يسـتطع أن يعلّقهـا أكثـر؟ وأن فُرَصـه معهـا كلّهـا تضاءلـت، بـل انعدمـت، فـي اللحظـة ذاتهـا التـي أخبـره الطبيـب فيهـا أنّـه يعانـي مـن ابيضـاض الـدم النقـويّ المزمـن. لا بـدّ أنهـا لاحظـت هـزال جسـمه. شـحوب وجهـه. لحيتـه التـي خفّـت وامتـدّ لهـا البيـاض. لـون جلـده الـذي تغيّـر؛ ولا بـدّ أنّهـا انتبهـت إلـى المنطقـة التـي لا تغطّيهـا قبّعتـه، جوانـب رأسـه، شـعره الـذي تسـاقط كليـاً. كل هـذا كافٍ للـردّ علـى: أيـن كنـت؟

أمّـا هـو؛ ففضّـل الصمـت؛ لأنّ أحلامـه.. قصـوره التـي بناهـا.. مدائنـه التـي سـافر إليهـا معهـا.. كلّهـا انهـارت؛ وتلـك هـي خيبـة قلبـه الكبـرى!

لا جديد

1، 2، 3، 4.. وأربعةُ أزرارِ قميصٍ تُغلق، والياقةُ تُطوى، والربطةُ تُشدّ. يغادرُ زوجها إلى العمل، لتنهضَ هي إلى الجامعة؛ للتدريس، وتصحيح الأوراق، ومراجعة المهامّ الإداريّة، ثمّ التحديق في الفراغ!

1، 2، 3، 4.. ويومٌ آخر.. الأزرارُ تغلق.. والياقة تُطوى.. والربطة تُشدّ.. يُغادر الزوج، وتنهضُ هي، ولا جديد!

أعوام قضتها في التدريس، تفوّقت على زملائها.. كُرّمت.. تدرّجت في مهامها؛ حتى وصلت إلى رئاسة القسم، ثمّ جاء (سامي) يطرقُ الباب طالباً يدها، فكأنّه ينبّهها إلى العمر الفائت دون سماع كلمة «ماما»، فيوقظ في داخلها حنيناً كاد أن يخبو بمرور الزمن.

كان سامي يكبرها بخمسة أعوامٍ ونيف، لم يكمل تعليمه الثانوي؛ غير أنّه يشغل وظيفة مهمّة في إحدى الشركات الخاصّة، وزواجه بها إذا تمّ؛ فهو الثاني بالنسبة له. فكّرت أن ترفض، لكن صوت أمها القلق:

ـ إلى متى سترفضين؟!

وصوت جدّتها المتذمر:

ـ همّ البنات للممات.. هذا العريس الخامس..

وافقت مستسلمة، ومرّت عليها السنواتُ رتيبة تعيدُ نفسها!

1، 2، 3، 4.. والأزرارُ.. والياقة.. والربطة.. والمغادرة.. ولم يقطع تلك الرتابة سوى الصندوق المقفل المخبّأ تحت السرير، وسارة؛ فمن تكون؟!

هي سكرتيرة سامي في العمل، بهيّة الطلّة، ساحرة العينين، تشي ابتسامتُها بانتصارٍ خفيّ.

لا تدري فيمَ وعلامَ انتصرت، ولكنّها امرأةٌ شكّلت في هناء رغبةً ملحّة أن تكون هي؛ لتستعيد ما كان لها!

* * *

ذات إجازة، بقيت على طرف السرير تحدّق في الجدار المملوء بشهاداتٍ تراكم على أطرافها الغبار، ودروع التميّز، ودزينة الصحف والمقالات المذيّلة باسمها، إلى جانب الصورة الجاثمة على الرفّ الخشبيّ؛ وهي تقف على استحياءٍ بمحاذاة سامي. كم مرّ على تلك الصورة؟.. الكثير من اللحظات والسنوات المتراكمة تراكم فواتير سامي.. فواتير الهدايا النسائية باهظة الثمن؛ التي لم تصلها قطّ!

ولفّت رأسها إلى الناحية التي ينام هو عليها. زجاجات عطر متنوّعة، وشهادة تقدير يتيمة، وقلادة ذهبية ضمّت حرف «S» مكرّراً مرّتين!

مشت ناحية الباب وأقفلته، ثمّ مالت نحو السرير؛ فأخرجت من تحته صندوقاً مقفلاً. أدارت مفاتيح الأرقام السرية فيه؛ ليكشف عن مجموعة من صور أجنّةٍ، وأطفال، ودُميةٍ بشعرٍ أسود طويل، ومشط.

أفرغت محتويات الصندوق على السرير، وأمسكت الدمية من تحت جناحيها.. رفعتها.. تأمّلتها.. قرّبتها.. ثمّ ضمّتها إلى صدرها بعطفٍ وحنانٍ، فكأنما تخاف عليها من أيّ خدشٍ أو أذية، وأجلستها في حجرها.. وبدأت تسرّح شعر الدمية؛ وهي تردّد ساهمةً شاردة:

«احنا الطويرات.. حلوات صغيرات.. حبّيناك يا أُمنا.. جينا لك بالخيرات»

ثمّ ضفّرت شعر الدمية، وأعادتها إلى مهدها.. الصندوق.

لكنّها انتبهت إلى صندوق آخر تحت السرير، يقبع ناحية سامي. جثت على ركبتيها، مالت نحوه. سحبته وفتحته؛ فإذا هو كومة من الفواتير المعتادة. لم يكن ليهمّها الصندوق وما حواه، لولا تلك الورقة الطبّيّة التي كانت في قعر العلبة، المندسّة بين فواتير سامي، المبدوءة باسمه، المنتهية بتوقيعٍ

وختم طبي؛ أثبت السبب الوحيد الذي جعلها تسرّح ـ حتّى هذا العمر ـ شعر دمية!

شخصت ببصرها نحو الورقة، ثمّ دارت عيناها ما بين الاسم والعنوان والتوقيع والتحليل. وبجسد خائر القوى، واهن الروح؛ انطرح رأسها إلى حافّة السرير، فيما كانت الورقة في كفّها ترتعش. أخذتها ذكرياتها لعهدٍ منطوٍ بعيد؛ عندما قالت بلهجة تنمّ عن الرجاء:

ـ سامي.. أرجوك.. دعنا نزُر الطبيب.. قد نجد حلاً.

ـ نجد؟ أنتِ السبب يا هناء.. أنت المشكلة!

ارتجفت، ثمّ ردّدت والدموع تبلّل خدّيها:

ـ لست أنا.

أمسكت بقبضتيها كلّ الأوراق.. الفواتير.. التقرير الطبّي.. وشرعت تمزّقها. ولم تهدأ حتّى دقّت بالعلبة على الطاولة عدّة مرّات؛ فانبعج طرفها مُحدثاً تجويفاً عميقاً فيها. أغمضت عينيها الدامعتين، ثمّ غطّت وجهها بيديها اللتين سرعان ما امتدّتا متقاطعتين إلى جبهتها؛ وبشهقاتٍ متتالية صاحت:

ـ يا الله.. يا الله!

* * *

بقيت على حالة الصمت تلك ساعاتٍ.. أياماً.. أسابيع.. 1، 2، 3، 4.. ولا ينتبه لها سامي.

1، 2، 3، 4.. والصمت يلفّ المكان، والرجل غارقٌ في فواتيره. أمّا هي، فلم تزدد إلا شحوباً واستسلاماً. أخرجت صندوقها السرّيّ، ووقفت أمام النافذة، ثمّ أخرجت ابنتها.. الدمية.. حلّت ضفائرها وعادت تشدّها.. حلّتها وشدّتها مرّاتٍ وهي تردّد:

«احنا الطويرات.. حلوات صغيرات.. حبيناك يا أمنا.. جينا لك بالخيرات»

تأمّلت ابنتها. ضمّتها الضمّة الأخيرة. ثمّ أغلقت عليها المهد إلى الأبد.

استيقظت صباح اليوم التالي.. 1، 2، 3، 4.. وأربعةُ أزرارِ قميصٍ تُغلق.. والياقةُ تُطوى.. والربطةُ تُشدّ.. ولا جديد!

تفاصيل (حبـ)ـر

حلّـت شـعرها عـن رباطـه المطّاطـيّ، فانسـاب علـى كتفيهـا وغطّـى أذنيهـا. كان طويـلاً فـي زمـنٍ مضـى، وكان يطيـب لـه أن يعبـث بـه كلمـا أسـندت ظهرهـا إلـى صـدره، فيجمعـه فـي كومـة واحـدة، يشـمّه، يمسّـده، ثـم يخلّـل أصابعـه فيـه كالمشـط؛ وإذا مـا انفلتـت منـه بعـض الخصـلات علـى نحرهـا، كان يكتفـي بتقبيلهـا!

وفـي هـذه الأثنـاء، كانـت هـي تبـرد أظفارهـا الطويلـة المطليّـة بلـونٍ يحبّـه؛ كالأرجوانـي، والعاجـي، والـوردي الباهـت. كانـت عباراتـه: جميـلٌ هـذا اللـون عليـك.. رائـعٌ هـذا الطـلاء علـى أظفـارك.. كفيلـة بإضـاءة بشـرتها الغضّـة بابتسـامة؛ فتلـك العبـارات؛ هـي الإثبـات الوحيـد أن جهودهـا لـم تضـع سـدى!

وفـي ليـالٍ أخـرى، فـإنّ النعيـم كُلّـه؛ بـل جُلّـه، متمثّـلٌ فـي الغـرقِ نعاسـاً علـى رجليـه وهـو يقـرأ كتابـاً فـي الفلسـفة أو النقـد، أو يتابـع نشـرة الأخبـار اليوميّـة، لتسـتيقظ فـي اليـوم التالـي؛ باحثـةً عـن ذلـك التفصيـل الصغيـر: رسـالته الصباحيـة، مُمنّيـةً نفسـها أنـه

وضعها هذه المرّة في مكانٍ مناسب؛ حتى لا تتأزّم كمرّاتٍ سابقة. تبحث متسائلة: أين كتبها هذه المرة؟

تقف أمام المرآة. تميل بجسدها ناحية اليسار، ثم اليمين. تدور ببطءٍ وهي تفتّش.. على الكتف؟ الظهر؟ الخاصرة؟ ظاهر الذراع اليمنى؟ باطن الذراع اليسرى؟ الكفّ؟ وحالما تجدها، تقرّب جسدها من المرآة؛ محاوِلةً أن تقرأ تلك الرسائل الموشومة على جسدها بالحبر الأسود: أحبك.. مجنونة.. كسولة.. حبيبتي.. أو أربعة قلوب صغيرة تُحيط اسمها. 4 هو رقم حظّه، ويوم خطبتهما، وشهر زواجهما، وتاريخ ميلادها المميّز.

تستحمّ وهي تراقب الكلمات تذوب على جسدها مع الصابون، فتصنع فقاعات كثيرة، تنفخها في الهواء بسعادة، ثمّ تأخذ رشاش الماء، وتحوّله إلى مايكروفون، وتغني:

شايف البحر شو كبير.. أنا كبر البحر بحبك.. شايف السما شو بعيدة.. بعد السما بحبك

وتنطلقُ ضحكتها عاليةً؛ كلما تذكّرت أنه كتب لها على عُنقها مرةً: أحبّك.. فحاولت أن تمحو الكلمة بمناديل إزالة المكياج.. بالصابون.. حتى احمرّ عنقها؛ وبقيت آثار الحبر الأسود، فاضطرّت إلى ارتداء قميص بياقة مرتفعة لتذهب للعمل؛ وعندما عادت، وقفت أمامه؛ واضعةً يدها على

خاصرتها وهي تطرقُ بخُفّها على الأرض بعصبيّةٍ مُصطَنعة، ثمّ قالت:

ـ هل تريد أن تخنقني يا رجل؟! كدتُ أموت من الحرّ!

انفجر ضاحكاً ثم قال:

ـ هذه بتلك!

يقصد الخدوش التي خلّفتها أظفارها على وجهه وصدره وظهره، والتي سبّبت له حرجاً أمام زملائه في العمل حينما سُئل مرّة:

ـ هناك آثار خدوش على وجهك.. هل تربّي قططاً؟!

مرّرت أصابعها على وجهه وهي تدقّق في ملامحه: عينيه الدافئتين، أنفه الطويل، شاربه المختلط ببضع شعرات بيضاء.. ثمّ طوّقت رقبته بدلال وقالت:

ـ أنا آسفة.

أمسك يديها. لثم أصابعها ثمّ قال:

ـ لا بأس.. أحبّ أظفاركِ طويلة.

وهي تحبّ أظفارها، وتحبّ شعرها، وتحبّ كلّ تفصيل فيها؛ لأنه مرتبطٌ به، حتى رائحة شعرها التي غالباً ما تكون برائحة الياسمين وورود الجوري، الورود التي يبتاعها، لا

ليضعها في أصيص أو يزرعها في حديقة؛ ولكن ليغرزها في طرف شعرها؛ كلما شدّته للأعلى على شكل ذيل حصان!

ولهذا، ومن أجله فقط، كانت تنتبه لكل شيء:

ـ الشعرة النافرة من حاجبها الأيسر.

ـ لون أحمر الشفاه: Dior434 أفتح من Mac: Cosmo.

ـ لون ظلال العيون بالألوان الترابيّة غالباً للمساء.

ـ طريقة برد الأظفار: (البيضوي واللوزي أجمل من الدائري والمربع).

ـ لون طلاء الأظفار: (الأرجواني يجعل يديها تبدوان أكثر إشراقاً).

ـ نوع العطر ووقته: (الياسمين صباحاً، والأوركيد والباتشولي مساءً).

ـ رائحة قناع الوجه المرطّب: (لا يُحبّه برائحة النعناع أو الخيار).

ـ كريم العناية الليلي: (ألّا يكون لزجاً).

غير أنّها منذ مدّة تزيد على الشهرين، صارت تستيقظ فلا تبحث عن رسائله على جسدها، بل توقّفت عن صُنْع فقاعات

الصابـون والغنـاء، ولـم تعـد تذكـر متـى كانـت آخـر مـرةٍ نفضـت غطـاء السـرير مـن بتـلات الـورود المتسـاقطة مـن شـعرها. ولا يهـمّ اليـوم أوضعـت المكيـاج أم لـم تضعـه، أنتزعـت الشـعرة النافـرة أم لـم تنتزعهـا، أستشـاطت غضبـاً مـن الحبّـة الحمـراء النابتـة علـى خدّهـا، أنتقَـت عطرهـا، أغيّـرت لـون طـلاء أظفارهـا، أأبقتهـا طويلـة أم قلّمتهـا.

لأنّهـا ببسـاطة، لـم تعُـد تسـمعه وهـو يضحـك علـى عصبيّتهـا المصطنعـة أو يكلمهـا، ولـم يعـد يخلّـل أصابعـه فـي شـعرها، ولا يغـرزُ فيـه ورداً، ولا يشـمّ رائحتهـا، ولا يُقبّلهـا، ولا يُثنـي علـى طـلاء أظفارهـا أو زينتهـا، ومـا عـاد يوبّخهـا إذا تأخّـرت أو بالغـت فـي وضـع المكيـاج، ومضـى وقـتٌ طويـل لـم تنعـم فيـه بالنـوم علـى رجليـه، وفـي آخـر مـرةٍ عانقتـه لـم يلثـم أصابعهـا، وعلـى غيـر عادتـه كانـت عينـاه مغمضتيـن، وكان بـارداً.. بـارداً جـدّاً وشـاحباً.. بـرود.. وشـحوب الأمـوات!

على شفا ذاكرة

فتحتُ دفتر يومياتي، وقرّرتُ أن أكتب لك. أعرفُ أنّك لن تقرأ، وإن قرأت فلن تتذكّر شيئاً عن كلّ هذه التفاصيل، وقد تُفاجَأ أنّ كلّ تلك الأشياء حدثت. وتسألني وأنت ترفع حاجبك الأيمن:

ـ متى حدث هذا؟

لكنني مُصرّة على الكتابة. أحتاجُ أن أمنّي نفسي باحتمال ورود تلك التفاصيل على بالك؛ ولو عن طريق المصادفة أو الخطأ.. حسناً.. لا أودّ الإطالة أكثر، دعني أخبرك عن تفاصيل هذا الصباح.

أستيقظُ دائماً قبلك، ولكنّني أفضّل البقاء في السرير لأتأمّلك، وأمارس طقوسي الصباحية؛ المتمثّلة في رسم ملامحك بسبّابتي. أحوّط وجهك أوّلاً، بدءاً من النصف الأيمن لجبينك، مروراً بذقنك المُهمَل أحياناً، وانتهاءً بالنصف الأيسر، ثمّ أرسمُ حاجبيك اللذين ترفعهما غالباً عند دهشتك، أو تكتفي برفع الأيمن فقط؛ وأنت تسأل مستنكراً:

ـ غير معقول! متى حدث هذا؟..

ولا أخفي عليك أنّي كثيراً ما أداعبُ رموشك وعينيك، أحبّهما. لونهما الغريب، وتلك الخطوط الدقيقة التي تتكوّن عند زاويتيهما كلّما ضحكت. كم أحبّ ضحكتك!.. ليتك تدري!

ورغم أنّي أمرّ على تفاصيل وجهك كلها، لكنّك تظلّ نائماً بُعمقٍ وسكينة، ولهذا كانت رغبتي الفضولية في الدخول إلى عقلك، واكتشاف ما تراه، تتزايد مع تتابع أنفاسك الهادئة وتواليها.

هل تحلم؟ وإن كنت تحلم.. فما أحلامك؟

أتدري؟ كنتُ سعيدة جدّاً في تلك المرّة الوحيدة التي قطعتَ فيها طقوس الرسم متمتماً باسمي. لا بدّ أنّك كنت تحلمُ بي.. وإلا ما الذي دعاك لترديد اسمي؟ وهذا يعني أنني لا أزال عالقة في عقلك، وإن كنتُ في أبعد نقطة فيه. كان ذلك كافياً لبثّ السعادة فيّ، وهذا ما دعاني للذهاب إلى البقالة لشراء مستلزمات الفطور الذي تحبّه: الخبز الفرنسيّ مع الزبدة الذائبة، والكعك المحلّى بالعسل، وحبّات الفراولة.

كان بالنسبة لي يوماً صافياً، رائقاً، جميلاً، وأنا أتابعك تتناولُ فطورك بنَهم. هل تذكره؟ سألتَني عن مناسبة هذا الدلال، وأخفيتُ عنك الأمر على استحياء. أنتَ حتماً لا تدري أنّ الأمر كلّه لذلك الشعور الصغير: أنّني ما زلتُ أقبع في ذاكرتك.. فيك!

في اليوم التالي تذكّرتَ أسرتك، وطلبتَ منّي أن أتّصل بأمّك وأبيك، وألححت عليّ في الطلب. بقيتُ صامتة، لكنك كنتَ حادّ المزاج؛ فاضطررتُ إلى التمثيل. أنا آسفة. اضطررت أن أمثّل أمامك أنّني اتّصلت بهم، وأنّهم لا يردّون. وأمام محاولاتي المتكرّرة الزائفة؛ رضختَ مستسلماً. سامحني. لكن كيف تريدني أن أشرح لك أنهما توفّيا منذ ما يزيد على ثلاث سنوات؟!

مجرّد الشرح سيُدخلني وإيّاك في دوّامة من الأسئلة المتكرّرة: متى.. وكيف.. وأين.. ولماذا لم تعرف.. ولمَ لمْ تحضر عزاءهما.. وكيف حدث أنّك لم ترَهما؟.. ثمّ ستسألني سؤالك الدائم المعتاد:

ـ ماذا تفعلين هنا؟..

وتصرخُ فيّ بغلظةٍ:

ـ اخرجي!

ولهذا، فضّلتُ الصمت في كثير من الأحيان، كتلك المرّات التي كنت تستيقظ فيها عند السادسة صباحاً، تطلبُ فيها منّي أن أحضّر لك فطورك وأوراقك؛ لأنّك ستغادر إلى العمل بعد ساعة، وأن ثمّة من ينتظرك لاجتماع، وكنتُ في تلك اللحظات بالذات أصلّي لله داعيةً أن تنسى. أن تعود لحالتك وتنسى فكرة العمل، والأوراق، والاجتماع، وكلّ تلك الأمور. لا أريد لتلك الحادثة أن تتكرّر. أقصد الحادثة التي ذهبت فيها إلى مقرّ عملك وصحتَ في جمعٍ من الموظفين:

ـ هيّا.. تأخّرنا، عندنا اجتماع!

أستطيعُ أن أتخيّل كيف كانت ملامح الموظّفين من حولك.. النظرات المتردّدة.. غير الواثقة.. الهازئة.. الغامزة.. المصحوبة بابتسامات أسفٍ، أو شفقةٍ، أو سخرية؛ المتبوعة بضحكاتٍ مكتومة، أو همساتٍ مخفوتة، ممّن كانوا يعرفونك، وترأّستهم في ما مضى، وممّن أتوا من بعدك، وبهذا الموقف ـ للأسف ـ عرفوك. لا بدّ أنّ الفضول الذي أشعلته فيهم كان عظيماً؛ إلى الدرجة التي جعلت أبا سعيد وآخرين يتّصلون سائلين عنك وعن حالتك. لا أدري كيف لم أنتبه لك وقت مغادرتك؟! ولا أدري كيف تذكّرتَ مقرّ عملك أصلاً، والطريق، والقسم الذي ترأّسته!

أنت تتذكّر أشياء قديمة. ليتك تتذكّرني كما تتذكّرها. ليتني أستطيع الالتصاق أو البقاء؛ ولو على شفا ذاكرتك. ليتكَ لا تُخطئ باسمي حين تناديني، أو على الأقلّ.. تكفّ عن ذلك السؤال الذي أكرهه وأمقته.. السؤال الذي يخنقني، بل يقتلني.. السؤال الذي يمحو كلّ شيءٍ بيننا في لحظة.. تحكّ رأسك، ثمّ تعقد حاجبيك؛ بينما تتطلّع فيّ كمن يبحثُ في الضباب عن قبسة نور، وتسألني:

ـ من أنتِ؟

فتبّاً لذاكرتك، كم خانتك وخانتني!

صِرْتُ قاصّة

قارئي العزيز: ....

أنـا أقصـدُكَ أنـت. نعـم. لا تسـتغرب. وذلـك الفـراغ فـي الأعلى؛ وضعته لتكتُب اسمك؛ صحيحٌ أنّي لا أعرفُه، ولكنّني أعرفُك، وأستطيع التكهّن بمزاجك والحالات التي مررتَ بها وأنت تقرأ قصصي. وقد سمعتُك في بعض الأحيان تضحك، أو تتبرّم، أو تشارك أحداً يجلس بجوارك قصّة، ورأيتك تلوي شفتيك للأسفل، وقد تكونُ لعنتني في سرّك كلّما قرأت تلك النهايات المفاجئة، أو كلّما أخفيتُ عنك الحقيقة. وقد تكونُ أغلقتَ الكتاب عدّة مرّات وأنت تتأمّله، وأكاد أجزم أنّه قد راودتك رغبةٌ ملحّة في خنقي، لكن.. لا بأس.. هوّن عليك، ودعكَ من كلّ هذا. دعني أخبرك الآن عن قصّتي أنا مع أبو العرّيف، وهو في الحقيقة إحدى الشخصيّات التي جعلتني أحبّ الكتابة، أو لنقل: تأليف القصص!

كأيّ عائلة إماراتيّة، خليجيّة، عربيّة أو غير عربيّة، نُحن

نحبّ إطلاق الألقاب على أقاربنا. ودائماً، بلا شكّ، هناك شخص يحمل لقب (أبو العرّيف)، فهو يعرفُ كلّ شيء عن أيّ شيء. خذ مثلاً السيّارات، المباني، والديكورات، العناوين، والأماكن، والأرقام، الفنون، والموسيقى، الكتب، علم النفس، الحكايات، والأساطير، والإتيكيت.

في منزلنا، هُناك ألقابٌ عديدة لأبي العرّيف، فهو مرةً الخبير، ومرةً الاستخبارات، ومرةً المعلّم، ومرةً (شيرلوك هولمز)، ومرات أخرى هو ليس سوى عمّي (غيث).

عمّي، الذي لو سألتموه عن طريقة تكاثر الخفّاش، لن يجيبكم: بالولادة، ويصمت؛ بل سيخبركم عن الخفافيش، وفصائلها، وأنواعها، ثمّ سيتفرّع الموضوع إلى قدراتها، والموجات فوق الصوتيّة التي تمكّنها من الطيران في الظلام، ويمرّ بالاختراعات الحديثة التي تمّت بناءً على دراسة هذه الكائنات، ثمّ سيعرّج على مصّاصي الدماء، وينتهي بأسطورةٍ أو حكايةٍ شعبية.. وهذا هو مقطعي المفضّل!

ولأنّني كنتُ طفلةً فضوليّة، فقد كنتُ ألحقه أينما ذهب. أحملُ معي دفتري الملوّن وأكتبُ وراءه قصصاً وحكايات شعبية وأسطورية، كـ: أم الدويس، وعويجة، وخطّاف رفاي.. ومعلومات.. ومواقف كثيرة.. وممّا زاد تعلّقي بعمّي غيث، أنّه اشترى لي مرةً مجموعة من دمى الأصابع القطنية، فبدأتُ

أصنع عالمي الخاصّ، المستوحى من حكايات عمّي وكائناته، من تنانين وأقزام وعمالقة وسحرة وقراصنة ولصوص.

في إحدى ليالي الشتاء؛ ذهبنا في رحلة برية إلى الفجيرة. اخترنا منطقة جبلية. أشعلنا النار. وكالعادة، وفيما كان الكبار منشغلين في إعداد العشاء، تحلّقنا نحن الأطفال حول عمّي غيث، لكنّه اعتذر منّا، وقال إنّ جعبته اليوم خالية من القصص، واستسلموا جميعاً بيأسٍ، ثمّ انخرطوا في لعب الكرة والجري، أو مساعدة الكبار؛ أمّا أنا، فبقيت في مكاني أحملُ دفتري بين يديّ، فقال:

ـ فاطمة؟ لماذا لم تذهبي مع الأطفال؟

ـ عمّي؟

ـ مم؟

ـ كيف نفدت القصص من جعبتك؟

ضحك، ثمّ أمسكني من خاصرتي، وأجلسني على رجليه، وقال:

ـ تنفد القصص منّا أحياناً يا فاطمة.. لكنّنا نستطيع أن نؤلّفها في أوقاتٍ أخرى.

ـ نؤلّفها؟ كيف!

ـ هممم، كيف أبسّطها لك؟!

وصمت برهةً يفكّر، فيما كنتُ أميل بوجهي ناحية وجهه أترقّب الإجابة، ثم قال:

ـ ثمّة عصفورة تحطّ على رأسي، وتخبرني بالقصّة، فأخبركم بها. لكنّها لم تأتِ اليوم.

شهقتُ في مكاني وقلت:

ـ أيّة عصفورة؟!

ـ صديقتي.

ـ أنت تمزح.. كيف تفهم لغتها؟

ـ تعلّمتها من كتاب أحضره لي صديقي من الهند.

ـ كتاب يعلّم لغة العصافير؟!

ـ آها.. لكنّها لغة صعبة جدّاً.. ستفهمينها عندما تكبرين.

ـ من أين عرفت العصفورة؟

ـ صدفة! سبحان الله!

ـ لماذا لا أستطيع أن أقول قصصاً مثلك؟ أقصد.. كيف أصادق عصفورة؟

ـ هي تختارك.

عقدتُ حاجبي، ثمّ قمتُ من على رجليه، ووقفتُ أمامه وأنا أقرّب عينيّ إلى عينيه، وقلت:

ـ عمّي! هل تقول الحقيقة؟

ـ طبعا لا..

ـ لكن.. عمّي..

ـ هكذا تؤلّف القصص يا فاطمة!

ومنـذ ذلـك اليـوم، وبعـد رحلـة (الفجيـرة) تلـك، صِـرْتُ قاصّـة.

فاطمة العامري

فنانة تكتب وتبني

- بكالوريوس العمارة والتصميم الداخلي
- مدرب محترف معتمد.
- حاصلة على عدد من الجوائز الأدبية والفنية، منها:
- جائزة دار جامعة أوكسفورد للطباعة والنشر
- جائزة القصة القصيرة التابعة لدار زايد للثقافة الإسلامية «قيمنا الإنسانية» والتي تُرجمت إلى 5 لغات
- جائزة المرأة الإماراتية للآداب والفنون.